شعر ابن الفارض

١ ـ وُلد أبو حفص عمر بن الفارض بالقاهرة فى الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٦ وتُوفى بها فى اليوم الثانى من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ ، وهو فى الأصل من أسرة حموية ، ولهذا الأصل أهمية فى طبع ذلك الشاعر ، فأهل الشام فى الأدب القديم تغلب عليهم رقة الطبع ، ولهم شغف بصور الجمال ، ونزعتهم الغزلية فيها لين يندر مثله فى مصر والعراق . وهذا الذى نقول به استوحيناه مما قرأنا لشعراء الشام فى المعانى الحسية والوجدانية ، وقد سبقنا الى هذا الحكم أبو بكر الخوارزمى إذ قال منذ عشرة قرون :

« ما فتق قلبى ، وشحذ فهمى ، وصقل ذهنى ، وأرهف حدّ لسانى ، وبلغ بى هذا المبلغ ، الا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التى علقت بحفظى ، وامتزجت بأجزاء نفسى [1] » .

والحقّ أن ابن الفارض شخصية فريدة بين شعراء مصر ، وقد اشتركت فى تكوينه ثلاث بقاع : الشام وفيها أصله ، والحجاز واليه حنينه ، ومصر وفيها مقامه ، فهو شاعر مصر والشام والحجاز ، وله فى هذه الأقطار الثلاثة محبون يرونه مترجماً لأدقّ ما يضمرون من نوازع القلب والوجدان .

٢ ـ وابن الفارض مدين بخلود شعره الى نزعته الصوفية ، ولو لا التصوف لانطمس ذكره منذ زمان ، لأن له فى فنونه الشعرية أساتذة لا يُشقّ لهم غبار ، فله فى الخمريات منازع خطير هو أبو نواس ، وله فى الحنين الى الحجاز إمام لا نظير

(١) يتيمة الدهر ص ٨ ج ١ .

له ولا مثيل هو الشريف الرضى [1]، وله فى الصبابة سيّد هو العباس بن الأحنف، وما يكاد شعر ابن الفارض يخرج عن الصبابة والحنين والخمريات .

فالمعانى الرمزية عند ابن الفارض هى السر فى اقبال الناس على شعره ؛ ولولا ذلك لانصرفوا عنه ورأوه أخفّ من أن ينصب له ميزان .

وفى رأيى أن العناية بشعر ابن الفارض كانت فاتحة جديدة فى وزن المعانى ، بعد أن ظل الناس أزماناً طوالاً يحرصون قبل كل شىء على وزن الألفاظ ، وهو من وجهة الديباجة وقوة السبك شاعر ضعيف ، ولكنه من حيث المعانى فحل من الفحول لأنه استطاع الجمع بين الحقيقة والخيال ، والحقيقة عند هذا الشاعر هى الصورة الروحية ، أما الخيال فهو الصورة الحسية التى رمز بها الى المعنويات .

ويمتاز ابن الفارض بقوة الروح . وحسبنا أن نذكر أنه ألهم فى منامه هذين البيتين :

وحياة أشواقى اليك وحرمة الصبر الجميل
ما استحسنت عينى سوا ك ولا صبوت إلى خليل

وهذان البيتان لا خطر لهما عند من يحفلون بجزالة الألفاظ . ولكنهما على جانب عظيم من القوة عند من يؤثرون المعانى ، وهل فى الحب أجلّ وأشرف من توحيد المحبوب ؟ إن الشاعر يقسم بأشواقه وبحرمة الصبر الجميل - وهو قسم لو تعلمون عظيم - يقسم أن عينه ما استحسنت سوى محبوبه ، وأن قلبه ما صبا الى محبوب سواه . وقوة المعنى والروح ظاهرة فى هذين البيتين ظهوراً قويّاً .

والنفس قد تلهج فى عالم الأحلام بمعانٍ شتى فليس من الكثير أن يلهج ابن الفارض فى نومه بالمعانى الشعرية ، ولكن الكثير أن يتفق لعقله الباطن أن لا يتحدّث بغير توحيد المحبوب ، وتلك شارة الصدق ، والصدق هو الدعامة الأولى لقوة الروح .

٣ - شغل ابن الفارض بالشعر نحو أربعين سنة ، وذلك أمدٌ طويلٌ ، فلا ينتظر مع هذا أن يصبغ شعره بصبغة واحدة ، وانما توجب طبيعة الأشياء أن يكون لشعر

---

(١) صح عندى أن ابن الفارض استوحى الشريف الرضى فى قصائده الحجازيات .

الصبا لون ، ولشعر الكهولة لون ، وقد كان الأمر كذلك ، فلابن الفارض قصائد تمثل الشباب ، وله قصائد لا تصدر عن غير الكهول .

والوحيُ واحدٌ فى شعر ذينك العهدين ، وهو الحب ، وان كان يختلف بعض الاختلاف : فالحب فى العهد الأول كان حباً حسياً ، ومن العسير أن نقول بغير ذلك فقد كان ابن الفارض فى صباه مضرب الأمثال فى نضارة الجسم واشراق الجبين ، وكان لابدَّ لمثله فى جماله وشبابه من صبوات . وكان لا بدَّ أن توحى اليه تلك الصبوات بأشعار فيها ثورة وفيها حنين ... وإنى لأعترف بأن من العسير أن نجد لذلك نماذج صريحة ، ولكن ماحاجتنا الى تلك النماذج ، وجمهرة شعره تؤيد هذا الرأى ؟ اننا لو غضضنا النظر عن التائية الكبرى وما نحا نحوها من شعره لرأينا الروح السائد فى الديوان يمثل شعر الشباب ، ولو ألقيت جملة قصائده فى ديوان آخر لما تنبه أحد الى تمثل الشوق الى الذات الالهية ، فان هذا الملحظ لم يخلقه الا التفكير فى شخصية بن الفارض ، وقد شاع فى المشرقين انها شخصية روحيه .

والحبُّ الحسى عند ابن الفارض كان أساس الحب الروحى ، وقد هدتنا التجارب الى أن المحبين فى العوالم الروحية كانوا فى بدايتهم محبين فى الأودية الحسية ، والهيام بالجمال الالهى لا يقع إلا بعد الهيام بالجمال الحسى ، ولو شئت لضربت المثل بقصة ابراهيم حين رأى القمر فقال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، والمحبون فى الأودية الحسية لا يتجهون الى العوالم الروحية إلا بعد أن تدلهم الدنيا على أن الجمال الانسانى كالظل يتحول ويزول ، وأشعار ابن الفارض فى جملتها تمثل معانى حسية ، هى فى بعض الأحوال رمز للمعانى الروحية . وهذا الرمز تفرضه سيرة ابن الفارض وقد ذاق الكأسين فعرف الحب الحسى والحب الروحى ، ويكاد يكون من اليقين عندنا أن حبه الأول هو السر فى قوة حبه الثانى ، لأننا نعرف الله أول ما نعرف عن طريق المحسوسات ، وكل جمال فى عالم الحس هو تذكير بالجمال المكنون فى عالم الروح . والمحسوسات نفسها لا توحى الشعر الا حين تستعدّ النفس لفهم ما فيها من الدلالات الوجدانية ، وأساس الحب هو التفاهم ، فالتمثال من المرمر قد يوحى الاعجاب ولكنه لا يوحى العشق إلا إن تمثلنا ما يرمز إليه من الروح . والصورة الجميلة الحية قد تمرّ بلا حب ولا وجد حين نحرم التفاهم مع الشعراء . ألا تذكرون ما يسمونه لغة العيون ؟ ان بعض العيون تتكلم بلا صوت فتوحى ما توحى من الهدى والضلال .

وابن الفارض على هذا مدينٌ الى الصور الجميلة التى ألهبت حواسه وهو يغدو ويروح فى ميادين القاهرة ، وأكاد أرى بعينى أشباحاً تختال فى قصائده الصوفية ، وهو نفسه استغلَّ الأساليب والصيغ التى اصطنعها شعراء الحب الحسى من أمثال ابن الأحنف وابن زيدون .

أليس من العجب أن تعجز جماهير الصوفية فى طوال الأزمان عن خلق لغة للحب الالهى تستقل عن لغة الحب الحسى كل الاستقلال ؟ ولم كان ذلك ؟ لأن الحب الالهى يغزو القلوب بعد أن تكون انطبعت على لغة العوام أصحاب الصبوات الحسية . فيمضى الشاعر الى العالم الروحى ومعه من عالم المادة أدوات وأخيلة هى عظة فى تصوير عالمه الجديد ، ومثلهم فى ذلك مثل ابن الجهم حين غلبت عليه أخيلة البادية وهو يخاطب الخليفة فى بغداد .

ومهما يكن من شىء فابن الفارض شاعر عاشق توزعت عواطفه بين عالم المادة وعالم الروح وهو فى أكثر شعره يعبر عن نفس صافية استطاعت السيطرة على طوائف من الناس زمناً غير قليل .

٤ ـ وشعر ابن الفارض يتراوح بين الفطرة والتكلف ، ومن المحتمل أن يكون ماصنع ابن بنته بشعره هو سبب ذلك التكلف ، فقد سمعت أستاذنا المهدى رحمه الله يقول فى محاضراته بالجامعة المصرية إن ذلك السبط كان يضيف أبياتاً الى بعض القصائد . غير أنه يجب أن نفرق بين التكلف والضعف ، لأن التكلف كان يغلب على أكثر الشعراء فى عصر ابن الفارض ، فما وسم من شعره بذلك الطابع لايمكن أن يشك فيه كله ، وانما يتطرق الشك الى ماظهر عليه الضعف كالذى وقع فى الهمزية التى مطلعها :

أرج النسيم سرى من الزوراء سحراً فأحيا ميت الأحياء

ففيها كثير من التكلف ، ولكنها لاتخلو من قوة ، ولننظر هذه الأبيات :

ياساكنى البطحاء ! هل من عودة أحيا بها ياساكنى البطحاء ؟

إن ينقضى صبرى فليس بمنقضٍ وجدى القديم بكم ولا برحائى

ولئن جفا الوسمىّ ماحل تربكم فدامعى تربى على الأنواء

واحسرتى ! ضاع الزمانُ ولم أفز منكم أهيلَ مودتى بلقاء

ومتى يؤمّل راحةً مَن عمره يومان يوم قلى ويوم تناء ؟!
وحياتكم يا أهل مكة وهى لى قسم لقد كلفت بكم أحشائى
حبيكم فى الناس أضحى مذهبى وهواكمُ دينى وعَقد ولائى
يا لائمى فى حب مَن مِن أجله قد جدّ بى وجدى وعزّ عزائى
هلاّ نَهاك نُهاك عن لوم امرىء لم يلف غير منعّم بشقاء
لو تدر فيم عذلتنى لعذرتنى خفِّض عليك وخلِّنى وبلائى !

وهذا من الشعر المقبول ، ولكن هذه القصيدة ختمت بأبيات أرجح أنها من وضع ذلك السبط الذى أراد أن يزيد ثروة جده فأساء ، ولنقرأ هذه الأبيات :

واهاً على ذاك الزمان وما حوى طيب المكان بغفلة الرقباء
أيام أرتع فى ميادين المنى جذلاً وأرفل فى ذيول حباء
ما أعجب الأيام توجب للفتى منحاً وتمنحه بسلب عطاء
يا هَلْ لماضى عيشنا من عودة يوماً وأسمح بعده ببقاء ؟
هيهات اخاب السعى وانفصمت عرى حبل المنى وانحلّ عقد رجائى
وكفى غراماً أن أبيت متيماً شوقى أمامى والقضاء ورائى

والديباجة واحدة ، أو متقاربة ، ولكن النفس يختلف اختلافاً شديداً يدركه الذوق ، وأخشى أن يكون تدخل ذلك السبط هو العلة فى أكثر ما وقع فى ديوان ابن الفارض من الاسفاف .

٥ ـ قلت ان التكلف كان كثيراً فى الشعر لعهد ابن الفارض . وكذلك نجده مفتوناً بفنون البديع من تورية وجناس وطباق ، وإن لم يسرف فى الشغف بتلك الفنون وقد اتفق له مرة أن يمعن فى التكلف ، وذلك فى قصيدته الدالية ، فان قافية الدال صعبة جداً ، ولا يقبل عليها الشعراء الا متكلفين . والذى يراجع القوافى العربية يرى الشعراء لا يتخذون الدال قافية الا فى الأبيات والمقطوعات ، ويراهم لا يقفّون قصائدهم بالدال الا فى النادر القليل ، أما ابن الفارض فقد بدا له أن يغرب ، وأن يدل معاصريه على امتلاكه لناصية تلك القافية الشموس ، فقال :

صدّ حمى ظمئى لماك لماذا وهواك قلبى صار منه جُذاذا

إن كان فى تلفى رضاك صبابةً ... ولك البقاء وجدتُ فيه لذاذا
كبدى سَلبتَ صحيحةً فامنن على ... رمقى بها ممنونة أفلاذا
يا راميـــاً يرمى بسهم لحاظه ... عن قوس حاجبه الحشا إنفاذا
أنى هجرت لهجر واشٍ بى كمن ... فى لومه لؤمٌ حكاه فهاذا (١)
وعلىّ فيك من اعتدى فى حَجره ... فقد اغتدى فى حجره ملاّذا
غير الساو تجـده عندى لائمى ... عمن حوى حسن الورى استحواذا
ياما أميلحه رشاً فيه حَـلا ... تبديله حالى الحـــلىّ بذاذا
أضحى باحسان وحسن معطياً ... لنفـــائسٍ ولأنفسٍ أخّاذا

وما نحب أن ننقل القصيدة كاملة ، ويكفى أن نشير الى أنها تجاوزت الخمسين بيتاً فهى قصيدة طويلة،وطولها يشهد بما وقع فيها من التكلف . والشاعر حين يتخير قافية وعرة كقافية الذال يشغل عن المعانى ، ويتجه فكره الى البحث عن الألفاظ ، ونحن نعرف كيف تجنى مثل هذه المحاولة على الشاعر ، وتصرف روحه عن الأجواء الشعرية ، وتحوّله الى صفوف «الفعلة» بعد أن كان من الفنانين .

٦ – ومن الاتجاهات الفنية التى غلبت على ابن الفارض ميله الى « التصغير » وقد غلب عليه هذا الميل غلبة قوية ، بحيث تجد آثاره فى جميع القصائد ، فأهل الحى وأهل الود هم غالباً « اهَيْل الحى وأهيْل الود » :

يا أهيـل الودّ أنّى تنكرو ... نىَ كهلاً بعـد عرفانى فُتىّ

وفى هذا البيت وحده تصغيران .

والظبى عنده ظُـبَىّ :

هـل سمعتم أو رأيتم أسـداً ... صاده لحظ مهاةٍ أو ظُـبَىّ

والهوى عنده هُوَىّ :

وضعَ الآمى بصـدرى كفه ... قال: ما لى حيلة فى ذا الهُـوَىّ

واللمى عنده لُمَىّ :

(١) فى هذا البيت ركاكة ظاهرة ، وكذلك البيت الذى يليه .

آه ! واشوق لضاحى وجهها وظما قلبي لذيّاك اللمىّ

وفى هذا البيت تصغيران .

والأرى ادىّ :

وأرى من ريحه الراح انتشت وله من وَلِهٍ يعنو الأرىّ

وفى هذه القافية وحدها تصغيرات كثيرة ، وكذلك الحال فى أكثر القصائد ، ربما كان ابن الفارض أكثر من اهتموا بالتصغير بين شعراء اللغة العربية وعند درس تصغيراته نراها مالت أحياناً الى التكلف أو الجناية على المعنى ، كالذى وقع فى تصغيره الهوى والأرى . ولا يقف كلفه بالتصغير عند الأسماء ، بل يتعداه الى الأكثار من تصغير فعل التعجب كقوله :

ياما أميلح كل مايرضى به ورضابه ياما أحيلاه بغى

وكما يكثر عنده التصغير تكثر عبارة (لعمرك) وهى عبارة جاهلية فتن بها عمر بن أبى ربيعة فتنة شديده وأنس بها ابن الفارض .

٧ ـ ومما شارك فيه ابن الفارض معاصريه الغرام بالألغاز ، واللغز ليس من الشعر فى شىء ، انما هو نظم يراد به اختبار الذكاء ، ولذلك نرى اللغز بعيداً عن فن ابن الفارض الذى يعتمد على الروح

وألغازه من الوجهة النظمية فيها الثقيل والمقبول . وقد راجعناها فلم نرض فيها عن شىء ، ويكفى هذا الشاهد فى الإلغاز بحلب :

مابلدة فى الشام قَلْب اسمها تصحيفه أخرى بأرض العجم

وثلثه إن زال من قلبهِ وجدته طيرا شجىّ النغم

وثلثه نصف وربع لهُ وربعه ثلثاه حين القسم

ويمكن الرجوع فى ديوانه الى الصفحات ١١١ — ١١٥ ففيها ما يكفى لتصوير هذا الجانب من فنونه النظمية .

٨ ـ وشارك معاصريه أيضاً فى الاشارات النحوية ، وإن لم يسرف فى ذلك ، وحسبنا هذا الشاهد :

نَصباً أكسبنى الشوقَ كما تُكسبُ الأفعالَ نَصباً لامُ كَىْ

وجانس فى هذا البيت بين النَّصب والنَّصَب فلم يصل بما تكلف إلا لمعنى هزيل .

٩ ـ وابن الفارض كأكثر الشعراء لا يعيِّن اسم الحبيب ، وإنما يدور حول طائفة من الأسماء ، فهواه حيناً عند سعاد كأن يقول :

ماشِمْتُ البَشام إلا وأهدى لفؤادى تحيةً من سعادِ

وحينا عند رُقيّ — مرخم رقية — كقوله فى البائية :

خاطِبَ الخطبِ دع الدعوى فما بالرُّقى نرقَ الى وصل رُقيّ

وقد جزى اسم ليلى فى شعره مرات كثيرة ، ولكنَّ أرق الاسماء عنده اسم « نعم » وهو يدور حوله بحنان :

اذا أنعمتْ نُعمٌ علىّ بنظرة فلاأسعدت سعدى ولاأجلت جُملُ

ومن لم يَجُد فى حب نُعم بنفسه ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخلُ !

وقد ضرب بها المثل حين قال فى وصف الراح :

ويطرب مَن لم يدرها عند ذكرها كمشتاق نُعمٍ كلما ذُكرت نُعمُ

ويتفق له أن يجمع أسماء مختلفة فى بيت واحد ، كما جمع بين «نعم وسعدى وجمل» فى البيت الذى مرّ آنفاً ، وكقوله فى الجمع بين ريا وعتبة سلمى .

عُتب لم تُعتِبْ وسلمى أسلمت وحمى أهل الحمى رؤية رَىْ

ومثل هذا البيت يدل على أن الأسماء ليست عنده إلا إشارات مبهمة لما يرمز اليه فى عالم الروح .

١٠ ـ ولقب ابن الفارض عند الصوفية لقبٌ طريف ، وهو «سلطان العاشقين» وقد شهد لنفسه بهذه السلطنة الوجدانية فى مواضع كثيرة ، فجعل نفسه إمام العشاق ، ومحبوبه إمام الملاح ، حين قال :

كل مَن فى حِماك يهواك لكن أنا وحدى بكل مَن فى حِما كا

فُقتَ أهل الجمال حُسناً وحسنى فبهم فاقةٌ الى معنا كا

يحشر العاشقون تحت لوائى وجميع الملاح تحت لوا كا

وهو معنى جيد انتبه أحد الزجالين فى العصر الحاضر فقال :

أنا فى العشاق أميرٌ وأنت فى الحاوين ملك

وجعل نفسه قدوةً فى الحب للأولين والآخرين حين قال :

قل للذين تقدموا قبلى ومَن بعدى ومَن أضحى لأشجانى يرى
عنى خذوا وبىَ اقتدوا ولىَ اسمعوا وتحدثوا بصبابتى بين الورى

وجعل المحبين جنده حين قال :

نسخت بحبى آيةَ العشق من قبلى فأهل الهوى جندى وحكمى على الكلّ
وكل فتًى يهوى فانى إمامُه وانى برىءٌ من فتًى سامعِ العذلِ

وهو فى هذا المعنى بصوره المختلفة مسبوق بالشاعر الذى ألهمه فن الحجازيات ، وهو الشريف الرضى حين قال :

وإنى لمجلوبٌ لىَ الشوق كلما تنفس شاكٍ أو تألم ذو وجدِ
تعرّضُ رسل الشوق والركب هاجد فتوقظنى من بين نوّامهم وحدى

١١ - ولابن الفارض معانٍ كلف بها كلفاً شديداً ، ودار حولها طويلاً ، وأظهرُ ما اهتمّ به وصف النحول ، وقد عرض له بصور كثيرة ، فيها المتكلف والمقبول ، فتارة يحدثنا أنه ضنى حتى خفى عن العوّاد فيقول :

خفيت ضنى حتى لقد ضلّ عائدى وكيف ترى العوّاد مَن لا له ظلّ
وما عثرتْ عينٌ على أثرى ولم تدع لىَ رسماً فى الهوى الأعين النُّجلُ

وتارةً يحدثنا بأنه كاد يخفى عن نفسه فيقول :

أخفيت حبكمو فأخفانى أسًى حتى لعمرى كدت عنى أختفى !

وحيناً يترفق فيذكر أن جسمه ضنى حتى كاد يشف عما يضمر من أسرار الهوى وانه ما زال يفنى بالنحول حتى خفى عن برء الاسقام وبرد الأوام ، فيقول :

يشف عن الاسرار جسمى من الضنى فيغدو بها معنى نحولُ عظامى
صريح هوًى جاريت من لطفَ الهوا سُحيراً فأنفاس النسيم لمامى
صحيحٌ عليلٌ فاطلبونى من الصّبا ففيها كما شاء النحول مُقامى
خفيت ضنى حتى خفيت عن الضنى وعن برء أسقامى وبردِ اوامى

ولم يُبق منى الحبُّ غير كآبةٍ وحزن وتبريح وفرط سقام
ولم أدر مَن يدرى مكانى سوى الهوى وكتمان أسرارى ورعى ذمامى
لينج خلىٌّ من هوايَ بنفسهِ سليماً ويا نفسُ اذهبى بسلام !

والكلامُ عن الضنى والنحول كثير جداً فى قصائد الشعراء ، ولكن إمعان ابن الفارض فى هذا المعنى جعله من خواصِّه الشعرية ، وافتنانهُ فيه افتنانٌ طريف تظهر طرافته لمن يتأمل كيف قصَر الهوى على تعرف جسمه النحيل .. وليتذكر القارىء أن أكثر الشعر فى النحول ليس الا مظهراً من مظاهر الذكاء ، وحظ العاطفة فيه قليل ، فالحسين بن مطير يجعل جسمه أضعف من أن يهتزّ له عود الثمام فيقول :

فلو أن ما أبقيت منى معلَّقٌ يعود ثمام ما تأوّد عودها

والمتنبي يزعم أن جسمه لم يبقَ من آثاره غير الصوت ، فيقول :

كفى بجسمه نحو لاَ أننى دجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى !

وقد بلغ أحد المولدين غاية الظرف حين قال :

عادنى ممرضى فلم ير منى فوق فرش السقام شيئاً يراهُ
قال لى : أين أنت ؟ قلت : النمسنى ! فبكى حين لم يجدنى يداهُ !

أما ابن الفارض فيجمع بين العاطفة والذكاء حين يتكلم عن النحول ، ومن التجنى أن نقول إن قطعته الأخيرة ليست إلا براعة فنية فى تلوين الخيال .

١٢ ـ وابن الفارض يشارك جمهور الشعراء فى الحديث عن طيف الخيال . ولكن صوره الشعرية فى هذا الباب تمتاز بألوان من القلق الروحانى ، لأنه يستصغر زيارة الطيف ـ وكان البحترى والمتنبي يريانها من مُتع الوصال ، ولننظر هذه الأبيات التى يصف فيها الخيال بالارجاف :

يا مانعى طيب المنام ومانحى ترب السقام به ووجدى المتلفِ
عطفاً على رمقى وما أبقيت لى من جسميَ المضنى وقلبى المدنفِ
فالوجدُ باقٍ والوصالُ مماطلى والصبر فانٍ واللقاء مسوَّفى

لم أخل من حسدٍ عليك فلا تُضِعْ سهرى بتشييع الخيال المرجفِ (١)
وأسأل نجوم الليل هل زار الكرى جفنى، وكيف يزور مَن لم يعرف ؟

فهو يرى الطيف لا يروى الغليل ، وقد ذهب الى أبعد غايات الشره الروحانى إذ قال :

واذا اكتفى غيرى بطيفِ خيالهِ فأنا الذى بوصاله لا أكتفى !

ونراه فى مكان آخر لا ينتظر طيف الحبيب فى النوم ، وانما يتصيده وهو يقظان ولننظر هذه الأبيات :

لك قربٌ منى ببعدكَ عنى وحُنوٌّ وجدتُه فى جفاكا
علَّم الشوق مقلتى سهر الليـــل فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلةٌ بها صِدتُ إسرا كَ وكان السهادُ لى أشراكا
بات بدرُ التمام طيفَ محيا كَ لطرفى بيقظتى إذ حكاكا
فتراءيتَ فى سواكَ لِعينٍ بك قرَّتْ وما رأيت سواكا

وهذا الطيف أظرف الأطياف ، والشاعر يحدثنا بأنه يرى فى البعد قرباً ، وفى الجفاء حُنواً ، لأن محبوبه يبعد ويجفو عن عمـد ، وتعمدُ الهجر صورةٌ من صور الوصال ، ثم يحدثنا بأنه يتخذ السهاد شركاً يتصيد به طيف المحبوب ، ثم ينظر الى البدر فيرى فيه خيال محياه . ثم يهتف بهذا البيت :

فتراءيتَ فى سواكَ لِعينٍ بك قرَّتْ وما رأيتُ سواكا

ومن طريف ما تلفت اليـه تعلقه بطيف المـلام ، حـين يعزّ عليـه طيف المنـام ، إذ يقول :

أدِرْ ذكر مَن أهوى ولو بملام فانّ أحاديثَ الحبيب مدامى
ليشهد سمعى من أحب وإن نأى بطيف ملامٍ لا بطيف منامِ

---

(١) فى نسخة الديوان « تشنيع » والذى أحفظه « تشييع » وهو عندى أنسب وناشر الديوان فسر التشنيع بالتفريع .

فلى ذكرها يحلو على كل صيغةٍ وإن مزجوه عُذّلى بخصامِ
كأن عذولى بالوصال مبشرى وإن كنت لم أطمع بردِّ سلامِ

فهو يتذوّق اللوم ويتشهاه لأنه يصله بصورة المحبوب ، وهو فى هذا مسبوق بقول دعبل :

أحد الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حبّاً لذكرك فليلمنى اللوَّمُ !

وهذا السبق لا يغضّ من فضل ابن الفارض لأنه تناول المعنى بروح مغمور بصدق الاحساس ، ودليل ذلك أنه يعود الى هذا المعنى من حين الى حين ، كأن يقول فى مخاطبة العذول :

أحسنت لى من حيث لاتدرى وإن كنت المسيء فأنت أعدلُ جائرِ
يدنى الحبيبَ وإن تناءت دارهُ طيفُ الملام لطرف سمعى الساهرِ
فكأن عذلك عِيسُ مَن أحببتهُ قدمتْ علىّ وكان سمعى ناظرى !

وهو فى هذه الأبيات يجعل السمع نظراً يرى به طيف الملام . والتكلف فى الصورة تكلف مقبول ، ومن التكلف ما يُقبَل ، لأنه يمثل لنا أخص النواحى الوجدانية فى ابن الفارض ، وهو شغفه باستحضار صورة المحبوب . ألسنا نراه يشطر وجوده شطرين يحسد أحدهما الآخر ، ويجعل بصره يتمنى لو عاد سمعاً لينعم بأخبار الحبيب ، إذ يقول :

بعضى يغار عليك من بعضى ويَحسُدُ باطنى ـ إذ أنت فيه ـ ظاهرى (١)
ويودّ طرفى إن ذكرت بمجلسى لو عاد سمعاً مصغياً لمسامرى !

١٣ ـ واستحضار صورة المحبوب من أسرار العبقرية فى شعر ابن الفارض ، فهو فى أكثر شعره لايشغلنا بنفسه كما يشغلنا بذلك الحبيب ، وانه ليرى روحه أصغر من أن تقدَّم هديةً لمبشره بقدوم أهل هواه :

وحياتكم ، وحياتكم ، قسماً ، وفى عمرى بغير حياتكم لم أحلفِ
لو أن روحى فى يدى ووهبتها لمبشّرى بقدومكم لم أنصفِ !

---

(١) ظاهرى هو فاعل « يحسد »

وكل شيء فى الوجود يمثل لروحه صورة الحبيب : فهو يراه فى ملامة العذال ، وفى لمع البرق ، وفى نغمة العود والنـاى ، وفى مسارح الظبـاء ، وفى برد الصباح والأصيل ، وفى مساقط الأنداء ، على بساط الأزهار ، وفى أذيال النسيم ، ويراه فى ثغر الكأس وريق المدام ، ولا قيمة للغربة ولا معنى للانزعاج مادام فى صحبة المحبوب :

تراه إن غـاب عـنى كلُّ جارحـة ... فى كل معنًى لطيفٍ رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم إذا ... تآلفـا بين ألحان من الهـزج
وفى مسارح غـزلان الخمـائل فى ... بَرد الأصائل والاصباح فى البَـلج
وفى مساقط أنداء الغمام على ... بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى الىّ سُحيراً أطيب الأرج
وفى التثامىَ ثغر الـكأس مرتشفاً ... ريقَ المدامة فى مستنزهٍ فرج
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معى ... وخاطرى أين كنا غيرُ منزعج

وقد يقال ان إستحضار صورة المحبوب واضح فى كل قصائد النسيب ، وهـذا صحيح ، ولـكنه فى شعر ابن الفارض أوضح ، والصبابة فى تشبيبه تبلغ غاية القوة فى كثير من الأحيان ، ولا نغالى اذا قلنا ان هذه الالتفاتة الوجدانية ممـا تفرد به ابن الفارض ، أليس هو الذى يقول فى قوة عاتية :

وقلتُ لرشدى والتنسك والتقى ... تخلَّوا وما بينى وبين الهوى خلُّوا
وفرّغتُ قلبى عن وجودى مخلصاً ... لعلىَ فى شغلى بها معها أخلو !

أرأيتم كيف يسعى الشاعر لتفريغ قلبـه عن وجوده الذاتى ، ويقصر خطراته النفسية على الشغل بالمحبوبة عساه يظفر من ذلك بخلوة روحية ؟

وانظروا كيف يبهركم وجه تلك المحبوبة وهو يمثل لـكم لألاءه بهذه الأبيات :

جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى ... فأصبح لى عن كل شغل بها شغلُ
فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى ... فان قبلتها منك يا حبذا البذل
فمن لم يَجُد فى حب نُعمٍ بنفسهِ ... ولو جاد بالدنيا اليـه انتهى البخل
ولولا مراعاة الصبابة غيرة ... ولو كثروا أهـل الصبابة أو قلوا

لقلت لعشاق الملاحة أقبلوا اليها على رأيي وعن غيرها وَلّوا
وان ذكرت يوماً فخرّوا لذكرها سجوداً وان لاحت الى وجهها صلّوا
وفي حبها بعت السعادة بالشقا ضلالاً وعقلي عن هداي به عَقْلُ
ومن أجلها أسعى لمن بيننا سعى وأعدو ولا أغدو لمن دأبه العذل
فارتاح للواشين بيني وبينها لتعلم ما ألقى وما عندها جهل
وأصبو الى العذال حبّاً لذكرها كأنهمُ ما بيننا في الهوى رسل
فان حدثوا عنها فكل مسامع وكلي إن حدثتهم ألسنٌ تتلو
تخالفت الأقوال فينا تبايناً برجم ظنون بيننا ما لها أصل
فشنع قومٌ بالوصال ولم تصلْ وأرجف بالسلوان قومٌ ولم أسل
فما صدق التشنيع عنها لشقوتي وقد كذبت عني الأراجيف والنقل
وكيف أرجّي وصل من لو تصورتْ حماها المنى وهماً لضاقت بها السُّبُل
وإن وعدت لم يلحق الفعلُ قولها وإن أوعدت فالقول يسبقه الفعل
عديني بوصلٍ وامطلي بنجازهِ فعندي اذا صح الهوى حسنَ المطل
وحُرمة عهدٍ بيننا عنه لم أحل وعقدٍ بأيدٍ بيننا ماله حَلُّ
لأنت على غيظ النوى ورضى الهوى لديَّ وقلبي ساعة منك ما يخلو

وهذه القطعة لا تحتاج الى تعليق، وقد نقلناها على طولها لأهميتها في تأييد ما نقول به من غرام هذا الشاعر باستحضار صورة المحبوب، وهي في أنفسنا حيةٌ كل الحياة. ولا يرى فيها فتوراً أو ركاكة إلا مَن يقصُر وجدانه عن ادراك ما فيها من معاني الشوق والحنان.

ولننظر لوعةَ الوجد في ختام هذا القصيد، وهي تمثل ذلك المعنى أصدق تمثيل:

تُرى مقلتي، يوماً، ترى من أحبهم وُيعتبني دهري ويجتمع الشمل
وما برحوا معنًى أراهم معي فان نأوا صورةً في الذهن قام لهم شكل
فهم نصب عيني ظاهراً حيثما سروا وهم في فؤادي باطناً أينما حلوا
لهم أبداً مني حنوٌّ وإن جفوا ولي أبداً ميلٌ اليهم وإن ملوا

١٤ ـ والصبابة الصادقة تواجه مَن يقرأ ديوان ابن الفارض فى مواضع كثيرة ، برغم ما يقع فيه أحياناً من التعمل والاسفاف ، وأكثر الناس يعرفون القائيـة التى يستهلها بهذا الابتهال :

قلبى يحـــدّثنى بأنك مـتلفى روحى فداكَ عرفتَ أم لم تعرف!
لم أقضِ حقَّ هواكَ إن كنت الذى لم أقضِ فيه أسًى ومثلى من يفى
ما لى سوى روحى وباذل نفسه فى حبّ من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى يا خيبـة المسعى اذا لم تسعف !

ومن هذا الباب قصيدته الميمية التى يشرح فيها كيف طاب له الافتضاح ، ولذّ له الاطّراح ، وكيف رضى بالذلة بعد العزة ، وحلا له التهتك وخلع المذار وارتكاب الآثام بعد النسك والتقوى ، الى أن يقول :

أصلّى فأشدو حين أتلو بذكرها وأطرب فى المحراب وهى إمامى
وبالحج ان أحرمتُ لبيتُ باسمها وعنها أرى الامساك فطر صيامى
أروح بقلب بالصبابة هائم وأغدو بطرفٍ بالـكآبة هامِ
وفى كل عضوٍ فىَّ كلُّ صبابةٍ اليهـا وشـوقٌ جاذبٌ بزمامى
ولو بسطت جسمى رأت كل جوهر به كل قلب فيـه كل غرام
ولما تلاقينا عشاءً وضمنا سواء سبيلىْ دارها وخيامى
وملنا كذا شيئاً عن الحى حيث لا رقيبٌ ولا واش بزور كلام
فرشتُ لها خدى وطاءً على الثرى فقالت لك البشرى بلثم لثـامى
فما سمحت نفسى بذلك غـيرةً على صونهـا منى لعزّ مرامى
وبتنا كما شاء اقتراحى على المنى أرى الملك ملـكى والزمان غلامى

وهذا المنظر بعينه مرّ بقصيدة للشريف الرضى . وكلا الشاعرين يتحدث عن العفاف . أما الشريف فيذكر أنه قضى الليل مع محبوبته فى عناقٍ عفيفٍ :

بتنا ضجيعين فى ثوبَى هوًى وتُقًى يلفّـنا الشوق من فرع الى قدم
وبيننا عفـةٌ بايعتها بيـدى على الوفاء بها والرعى للذمم

أما ابن الفارض فقد اقترح أن يبيتا على المنى ، وتلك أقصى غاية العفاف .

١٥ ـ ومن أهم قصائد ابن الفارض قصيدة « شربنا على ذكر الحبيب » وهى قصيدة رمزية بلا جدال . والخمر فيها خمر الحقيقة التى شغفت الصوفية وملأت قلوبهم بألحان الوجد والحنين .

ومن أجل هذا نرى مبالغاته مقبولة كل القبول حين يصفها بالقدرة على كل شىء :

وإن خطرت يوماً على خاطرى امرىء ... أقامت به الأفراح وارتحل الهمُّ
ولو نظر الندمان ختم إنائها ... لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت ... لعادت اليه الروح وانتعش الجسم
ولو طرحوا فى فىء حائط كرمها ... عليلاً وقد أشفى لفارقه السقم
ولو قرّبوا من حانها مُقعداً مشى ... وتنطق من ذكر مذاقتها البُكم
ولو عبقت فى الشرق أنفاس طيبها ... وفى الغرب مزكومٌ لعاد له الشم
ولو خضبتْ من كأسها كفُّ لامسٍ ... لما ضلّ فى ليلٍ وفى يده النجم
ولو جُليتْ سرّاً على أكمهٍ غداً ... بصيراً ومن راووقها تسمع الصُّمُّ
ولو أن ركباً يمموا تُرب أرضها ... وفى الركب ملسوعٌ لما ضرّه السم
ولو رسم الراقي حروف اسمها على ... جبين مصاب جُنّ أبرأه الرسم
وفوق لواء الجيش لو رُقم اسمها ... لأسكرَ من تحت اللوا ذلك الرسم

وهذه الخمرة العالية هى خمر الحقيقة ، وهى الذات الالهية التى تقول للشىء كن فيكون :

يقولون لى صفها فأنتَ بوصفها ... خبير ، أجل ! عندى بأوصافها علم
صفاءٌ ولا ماءٌ ، ولطفٌ ولا هوآ ... ونورٌ ولا نارٌ ، وروحٌ ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها ... قديماً ولا شكل هناك ولا رسم

وهل فى عالم المعانى أدق وأبرع من هذا الالتفات الطريف إذ يقول هذا الشاعر النشوان :

وقالوا شربت الاثم ! كلا ، وانما ... شربت التى فى تركها عندىَ الاثم !

هنيئاً لأهل الدير كم سكروا بها وما شربوا منها ولكنهم همّوا

وهذا البيت يعين أنها خمر الحقيقة ، ولو أراد خمر أبي نواس لما صح له أن ينكر شرب الرهبان من تلك الراح ، وكيف والرهبان كانوا سادة الشاربين ، والى ديراتهم كان يحج عشاق الرحيق ؟!

والشاعر يحدثنا بأن الرهبان همّوا بشرب تلك الخمر ، خمر الحقيقة ، وهذا حق : فقد كان الصوفية يرون الرهبان أئمة التنسك لو صحّ لهم دينٌ ، وقد وردت كلمة « راهب ، فى مقام التعظيم فى قول الرشيد « كان أبو العباس عيسى بن على راهبنا وعالمنا أهل البيت [1] » .

وابن الفارض يمضى فيقول :

وعندىَ منها نشوة قبل نشأتى معى أبداً تبقى وإن بَلِىَ العظمُ

وهذه النشوة التى سبقت الوجود ليست كتلك النشوة التى وقعت فى قول أحد المتحذلقين :

أسكر بالأمس إن عزمت على الشر ب غداً ... إن ذا من العجبِ !

وانما هى نشوة من يؤمن بخلود الروح ويعتقد أن لها نشوات قدسية قبل الخلق وبعد الموت :

فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحياً ومَن لم يمت سكراً بها فانه الحزمُ

على نفسه فليبكِ من ضاع عمره وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

١٦ ـ ولا يسع من يهتم بدرس ابن الفارض أن يغفل التائية الكبرى ، وهى فى نحو ستمائة بيت ، وقد نظمها تحت وحى التصوف ، وهى قصيدة يغلب عليها التكلف وفيها مع ذلك مواقف مضمخة بعبير الروح ، كأن يقول :

وما ظفرت بالودّ روحٌ مراحةٌ ولا بالولا نفسٌ صفا العيش ودّتِ

وأين الصفا ؟ هيهات من عيش عاشق وجنة عدنٍ بالمكاره حفّتِ !

وكان يقول فى خطاب الحقيقة السرمدية :

عن مذهبى فى الحب ما لىَ مذهبٌ وإن ملتُ يوماً عنه فارقت ملتى

ولو خطرت لى فى سواك ارادةٌ على خاطرى سهواً قضيت بردّتى

لك الحكم فى أمرى فما شئت فاصنعى فلم تكُ الا فيك ، لاعنك رغبتى

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٥٠

١٧ - والمتأمل فى شعر ابن الفارض من الوجهة الفنيـة يراه تأثر بعض التأثر باللغة المصرية ، فهو يجمع الفعل حين يكون الفاعل جمعاً ، وذلك معروف عن المصريين فى لغة التخاطب ، وإن كان لا يفعل ذلك إلا حين تقهره ضرورة شعرية .

١٨ - وبمناسبة مصر نذكر أنها لا تمر فى شعره إلا قليلا ، فقد كان هواه كله فى الحجاز ، وأظهر موضع مرّ فيه اسم مصر هو قوله فى التشوق الى أهل نجد :

يا أهل ودى هل لراجى وصلكم طمعٌ فينعم باله استرواحا
مذ غبتم عن ناظرى لىَ أنهُ ملأت نواحى أرض مصر نواحا
واذا ذكرتكمُ أميل كأننى من طيب ذكركمُ سقيت الراحا
واذا دُعيتُ الى تناسى عهدكم ألفيت أحشائى بذاك شِحاحا

١٧ - ومؤرخو الأدب العربى لا يرون ابن الفارض من الفحول ، وفى ظنى أنْ سيفكر فيه ناس بعد قراءة هذا البحث . على أن ابن الفارض لا ينتظر أن يحييه المؤرخون فقد حَيِيَ على ألسنة الجماهير حياة قوية ، ولا أزال أذكر كيف كان يحتشد الناس فى بيت الصواف بحىّ سيدنا الحسين ليسمعوا الشيخ حسن الحويحى ، وهو يتغنى بهذه الأبيات :

مابين معترَكِ الأحداق والمهج أنا القتيـل بلا إثم ولاحرج !
ودّعتُ قبل الهوى روحى لما نظرت عيناىَ من حسن ذاك المنظر البهج
للهِ أجفان عـينٍ فيك ساهرةٍ شوقاً اليك وقلب بالغرام شج
عذب بماشئت غير البعد عنك تجد أوفى محب بمـا يرضيك مبتهج
وخـذ بقية ما أبقيت من رمق لاخير فى الحب إن أبقى على المهج !

وقصيدة « تِهْ دلالاً » فأنت أهل لذاكا » يسمعها الجمهور فى « اسطوانة » للشيخ على محمود ولا تزال قصائد ابن الفارض متعة السامرين فى سهرات الصوفية .

وقد اهتم رجال من المؤلفين المشهورين بدرس ديوانه وشرحه ، وفى ذلك الحياة كل الحياة . كل شىء حىّ فى ابن الفارض حتى قبره ، وقد زرته مرة فرأيته مزدحماً بأفواج المبتهلين ؟

زكى مبارك

أبو القاسم الشابى

نظرة فى شعره عامة

يتساءل الناقد الانكليزى الكبير ماثيو أرنولد فى دراسته عن كيتس « هل كان كيتس شيئاً آخر غير كونه شاعراً ؟ » ولو جاز لنا أن نستعير منه هذا السؤال لقلنا « هل كان أبو القاسم الشابى شيئاً آخر غير كونه شاعراً ؟ » — ذلك أن أبا القاسم كان فنّاناً بكل ما تحوى هذه الكلمة من معنى .

فالشاعر المطبوع هو ذلك الذى يستطيع فى لباقة وسهولة أن يصور لك خلجات النفس الإنسانية والطبائع البشرية المتباينة ويصقلها لك فى أداء وافٍ وتركيب سليم وهكذا كان أبو القاسم يعمد الى تصوير تلك الاحاسيس ويجمع ما تبعثر منها ثم يخلع على ذلك روحه وطبيعته الشاعرية الفنانة ، ويتعمق فى تفسير هذه الاحاسيس الجياشة فى نفسه الكبيرة تفسيراً يجعلنا نقف معجبين بهذه العبقرية الفذّة الناضجة الممثلة فى شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وإذا كان لنا من عزاء فهو أنه توفى فى سنّ قبض عندها شاعر من أكبر شعراء إنكلترا الرومانتيكيين المبرّزين فى القرن التاسع عشر هو جون كيتس ، وكأنّ القدَر أبى إلا أن يمثل هذه المأساة ثانيةً فى القرن العشرين فجاء الشابى من أنبغ شعراء العربية وممن كان ينتظر منهم أن يعيدوا للشعر العربى شبابه القوى ، وابتلاه بما ابتلى به كيتس من قبل فراح ضحية داء أقضّ مضجعه ، وعجل بركابه إلى وادى الموت فى وقت تتطلع فيه الأعين إلى مستقبل معسول الآمال ، حافل بشتى ضروب التجديد والحياة على يدى أبى القاسم الشابى .

فلاعجب حينذاك إذا احسّ مطالعوه بالهوة السحيقة التى خلفها موت أبى القاسم

وليس بين أيدينا للأسف مجموعة كاملة من شعره الناضج ، بل كل ما لدينا هو هذه النتف القليلة التى كان ينشرها فى أبولو [١] ، ومهما يكن من ضآلتها فهى تدل على أنها إنجاب شاعر مطبوع ، وفنان قد قارب نهاية العبقرية ، وأديب يحق للعربية ان تفخر بأن اضاف إليها ثروة من المعانى على جانب كبير من القوة والتأمل ، ولو أتيح لهذا الشاب ان يجد مستشرقاً يدرس أدبه لطلع على العالم الغربى بثروة لاشك أنه سيهلل لها إعجاباً وإكباراً ، وستصبح عبقريته وشاعريته موضع الاجلال والعظمة ، ذلك لأن أبا القاسم لم يكن من أولئك الشعراء الذين يسيرون على نهج من تقدمهم ، بل كان من أئمة فريق يتطلع على الدوام الى الامام ، وينظر الى محيط أعمق مما ينظر فيه شبّان اليوم ويصوّر بريشته السحرية صور عالم لا تحدّه النظرة الواحدة ، ولا يستقصى ما فيه التأمل السطحى ، بل هو عالم جيّاش بشتى من ضروب الاحساس ، فتشعر وأنت تقرأ شعره أنك أمام فيلسوف يجلو صور الحياة المتباينة ، ويسمو عن هذا العالم المادى الى عالم عبقرى الخيال ، تدوى فيه أناشيد الوجود ، وتغنى فيه ملائكة الحبّ .

كان أبو القاسم شاعراً ، وشاعراً عبقرياً مطبوعاً ، ولكن قبل أن نتناول شاعريته بالتحليل نقف وقفة ساذجة صغيرة ونقول : من هو الشاعر؟ وما فائدته للعالم ؟ ماذا يكون حالته لو خلا منه ؟

هذه الأسئلة وأمثالها تدور فى خلد الكثيرين ، ويذهبون فى الاجابة عنها مذاهب شتى متشعبة النواحى ، بيد أنا نقدم بين يدى القارىء كلمة صغيرة عن ماهية الشاعر . أول من يطالعنا من الأمم التى خلد الشعر آثارها الأغريق القدماء فنراهم يسمونه «الخالق» ذلك لأنه يعمد الى خياله وتفكيره وإحساسه وتذكره ويؤلف بين أشتاتها ، ويجعلها كلها تتحد فى إبداع صورة جديدة التكوين لم يسبقه اليها أحد ، فهم ينظرون الى الشاعر نظرة فيها شىء من التقديس والتأليه ، وليس بعد هذه المرتبة منزلة لطامع يتطلع الى درجات سامية من الجلال . ولو أنك بحثت فى شعر أبى القاسم لوجدته يبدع من خياله الفذ صوراً فتانة لم يسبقه اليها أحد وحسبك أن

(١) تفضل علينا صديقنا الشاعر التونسى صديق طاهر سعدى بكتاب يسمى (الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر) وفيه مجموعة لا بأس بها من شعر ابى القاسم رجعنا إليها فله خالص الشكر .

تطالع له قصيدته المسماة «صلوات فى هيكل الحب» أو «فى ظل وادى الموت» لترى أية عبقرية وأى إعجاز فى المعانى وابتكار فى الأخيلة ، والا فمن هذا الذى استطاع قبل أبى القاسم أن يأتى بهذه المعانى النادرة كقوله :

أنت ... ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقرىٌّ من فنّ هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وسحر وجمال مقدس معبود
أنت روح الربيع تختال فى الدنيا فتهتز رائعات الورود
وتهبّ الحياة سكرى من العطر ويدوى الوجود بالتغريد

ولو شئنا الاستدلال على ذلك لعرضنا شعره جميعاً أمام أعين القرّاء .

لقد رأيت فيما سبق نظرة الاغريق نحو الشاعر وتعريفهم إياه ، والآن نمض بك الى الأمة اللاتينية ، فتراها تطلق عليه كلمة Wates ومعناها (النبى) وبذلك وضعت الشاعر فى مرتبة النبوّة ، ذلك لأن كلا من الشاعر والنبى مكلف بتأدية رسالة جديدة لم يأت بها أحد قبله .

هذا هو الشاعر كما يراه الاغريق إلهاً والرومان نبياً ، وكلا النظرتين فيها تعظيم لشأنه ، ورفعة من قدره ، واجلال له ولرسالته التى كلف بتأديتها ، ولعلك ترى تنيسون يصوّر الشاعر صورة مستمدّة من صميم نفسه ووجدانه فيقول : ولد الشاعر فى محيط ذهبى ، تتلألأ فوقه النجوم المذهبة ، وقد ركبت نفسه على حقد الحقد ، والازراء بالمكر وعشق الحب [1] وانما استدللت بهذه القصيدة بمناسبة ما قصه علىّ الزميل الكريم الشاعر التونسى صديق طاهر سعدى من أن أبا القاسم كان ناضع السريرة ، لا يكنّ لاحدٍ ما حقداً ، فلا عجب اذا بكته تونس والجزائر ، ولا غرو اذا قام الشعراء والادباء بتأبينه .

---

(١) راجع هذه القصيدة كاملة فى ديوان تنيسون تحت عنوان The Poet حيث يقول :

The Poet in a golden clime was born,
With golden Stars above;
Dowr'd with the hate of hate, the scorn of scorn,
The love of love.

* * *

كثيراً ما يتجرّد الشاعر عن مادية الحياة ، وينساب بنظره وخياله الى عوالم يصورها له الفكر ، فيرى بعقله الباطن ما تعجز العين المجرّدة عن رؤيته ، ولعلنا اذا أردنا محجة الحق وجادة الصواب قلنا إن الشاعر المبدع الخالق لابد له من إحساس قويّ يدفعه ، ثم يعمد هذا الشعور الجارف الى تكوين الافكار التى تتكوّن منها القصيدة ولقد تحسّ بذلك قوياً وتلمس أثر هذا وصحته فى شعر أبى القاسم ، غزلا كان أم وجدانياً ، ومن مظاهر شاعريته القوية تلك الموهبة التى عرف كيف يستغلها فكانت بعض كلماته المفردة تخلق فى مخيلة القارىء عالماً آخر ، وترسم صوراً قوية واضحة كما فى قوله :

أنتِ تحيين فى فؤادِى ما قد مات فى أمسِىَ السعيدِ الفقيد
بعد أن عانقتْ كآبة أيا مى فؤادى وألجمتْ تغريدى

ثم هو يشعر بذلك شعوراً لايستطيع أن ينكره أو يتجاهله ، وكيف ينكره أو يتجاهله وهو يحسّ به كأنه الموج الصاخب الثائر يلهو بالسفينة وسط الخضم المزبد وقد ينكره وقد يتجاهله ولكن شاعريته وأحاسيسه يكشفان الستر فيقول :

فى فؤادى الغريب تخلق أكوانٌ من السحر ذات حسنٍ فريد
وشموس وضاءةٌ ونجوم تنثر النور فى فضاءٍ مديد
وربيع كأنه حلم الشاعر فى سكرة الشباب السعيد
ورباة لاتعرف الحلك الداجى ولا ثورة الخريف العتيد
وطيور سحرية تتناغى بأناشيد حلوة التغريد
وقصورٌ كأنها الشفق المخضو بُ أو طلعة الصباح الوليد
كل هذا . . . يشيده سحر عينيكِ والهام حسنك المعبود
فحرامٌ عليك أن تهدمى ما شاده الحسن فى الفؤاد العميد
فالالـه العظيم لايرجم العبدَ اذا كان فى جلال السجود

* * *

ولأبى القاسم قصيدة أسماها (الحانى السكرى) وربما أحسّ القارىء فى العنوان

نفسه شيئاً من قوة الابتكار ، وروعة التجديد فى المعنى ، وتلك من الميزات التى طبع عليها أبو القاسم ، وان هاتين الكلمتين حسب لتصوّر ان لسامعهما وادياً سحريا تتغنى فيه ملائكة الحب ، وتدوى فيه أغاريد الشباب المعسول ومثل هذا ، غير أنا نترك العنوان ونمضى الى جوهر القصيدة ولبها فنرى الشاعر فيها يصوّر المحبين كالطائر فى الافق الساجى . ولعلكم تتبينون الرمزية (symbolism) فى قوله :

نحن مثل الربيع نمشى على أر ض من الزهر والرؤى والخيال
فوقها يرقص الغرام ويَلْهو ويغنى فى نشوة ودلال

وكما فى قوله :

أيها الدّهر ، أيها الزمن الجارى الى غير وجهة وقرار (١)
أيها الكوْن ، أيها الفلك الدوّا ر بالفجر والدجى والنهار
أيها الموت أيها القدر الأعمى فقفوا حيث أنتم أو فسيروا
ودعونا هنا نغنى لنا الأحلا م والحب والوجود الكبيرُ
واذا ما أبيتمُ فاحملونا ولهيب الغرام فى شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصّبا فى يدينا

وإنا لنلمح بين ثنايا هذه الأبيات السالفة روح الثورة والتمرّد . ولكن أيّة ثورة وأى تمرد يزأر بهما ذلك الشاب الشيخ ؟ . . . انها ثورة على كل ما فى الوجود وتمرّد الساخر بالحياة ، بل والعطف والحسرة على من فيها ، فما أشبهه فى ذلك بسقراط ، فقد سخر هو الآخر من جهل القادة وإن كان رثى لهم فى نفس الوقت ، وإنا لنحس بجانب هذا فى تلك الأبيات بعاطفة وجدانية تبعثه الى أن يصيح هذه

---

(١) لعلنا نرى مظاهر الشبه الكبير بين شاعرنا الشاب فى هذا البيت ومايليه وبين قول الشاعر الانكليزى الشاب بيرسى بيش شلى فى قصيدته « الزمن » حيث يقول :

Unfathomed Sea, whose waves are years !
Ocean of time whose waters of deep woe
Are brackish with the salt of human tears ;

الصيحة الداوية فى أذن الدهر ومسمع الحياة ، فسواء لدى الشاعر أن يقف الدهر أو يتابع سيره ، وسواء لديه الحياة والموت . ثم ها هو ذا يهزأ بالكون والموت وبكل ما على سطح البسيطة من قوى مادام هو بجانب حبيبته ، وهوَ يهتف بهؤلاء جميعاً أن اتركونا فى وحدتنا تغنّى لنا الأحلام والحبّ والوجود . ولكنه يرجع الى نفسه فيرى نفسه أضعف من أن يقف موقفاً سلبياً إزاء هذه القوى المتكالبة عليه . فيتقهقر ولكن فى تأنٍّ فيصرخ بها جميعاً إن أبوْا أن يتركوهما فى وحدتهما القدسية فليحملوهما ولهيب الغرام فى شفتيهما يؤجج فيها عاطفة الحب ويذكى مشعلها الخفاق فى قلبيهما الفنيين .

وهو فى حبه يتفانى الى النهاية فيرى أن الغرام أسمى هبة يهبها الله للشاعر ،وماذا يكون الامر لو نضب معين الحب وجفّ ورده ؟ فما الحياة الا أنفاس الحب وليست الا ألحاناً منغومة موقعة على قيثارته السحرية . انّ هذا الحب هو الذى يصفه شكسبير « بأنه وشيجة الخلود الأبدية ، لاننال منها العواصف الهوجاء ، وهو النجمة اللالاءة للمدلج السارى فى غياهب الظلام ، وهو الذى يحمل النفس الى وادى الخلود ، حيث تظل على قيد الحياة الى الابد » .

ولسنا نعجب اذا رأيناه يتفانى فى حبه ، ويقدّس هذا الغرام الوليد ، ولسنا نلومه على أن يبكيه وقد ألقى فى لحده مسجّى تطوف حوله الذكريات الحزينة ، وتنبعث أنغامه الحنون فاذا فى الفؤاد ثورة قلّ أن تنطفىء ، وانما تخمد الى حين ، كأنها اللهب يتأجج تحت الرماد ، غير أنا نلوم الشاعر حين يقول لنا إنه يحتقر المجد وأوهام الحياة وإن كنّا نتسامح فنغفر له ذلك حين نرى فيه الاخلاص ممثلاً فى قوله :

لستُ يا أمسِيَ أبكيكَ لمجدٍ أو لجاهْ
فانا أحتقر المجـــدَ وأوهام الحياهْ
أو لعمر بلغت منه الليالى منتهاهْ
وتلاشت فى خضمّ الزمن الطاغى قواهْ
فانا ما زلت فى فجر شبابى أو ضحاهْ

فى هذه الأبيات الخمسة يعرض علينا صورة نفسه وقد رغبت عن المجد والجاه وكل ما يشغل النفوس ، وليس يبكى عمره وهو مازال فى فجر عقده الثالث ينعم

بالشباب الغضّ ، والامل الباسم ، ويأمل فى الحياة آمالاً طروبة مشبوبة بقوة الحسن. إذن فما الذى يبكيه ، وما الذى يؤلمه ، وهو ينعم بكل ماشاء ؟

الجواب عند أبى القاسم نفسه ، فهو يبكى ...ويبكى... ولندعه يقص علينا ذلك :

إنما أبكيك للحبّ الذى كان بهاْ
يملأ الدنيا فانّى سرت فى الدنيا أراهْ
فاذا ما لاح فجرٌ كان فى الفجر سناهْ
واذا ما غرّد طيرٌ كان فى الشدو صداهْ
وإذا ما ضاع عطر كان فى العطر شذاهْ
واذا ما رفّ زهر كان فى الزهر صباهْ
فهو فى الكوْن جمالٌ عملك الافق ضياهْ
عبقرى السحر ممراح وديع فى سماهْ
ينسج الاحلام فى قلبى بأضواء الحياهْ
ويغنينى فأنسى فى مسرّات غناهْ
كلّ ما فى الكون من حزْن وأفراح عداهْ

وقد يطلع علينا أبو القاسم فى مسوح الفيلسوف الذى ينظر الى الحياة نظرة فيها شىء من اللذة ونواح من الألم فيهتف من أعماق قلبه الفتىّ مستصرخاً هذه الجراح الدامية ، هاتفاً بها أن كفّى عن نواحك وأنينك ، ولكن أنّى لها أن تصيخ الى هذه الصرخات التى لا تلبث أن تتلاشى فى خضم الحياة ! فهو يقول :

اسكنى يا جراحْ واسكنى يا شجونْ
مات عهد النواح وزمان الجنونْ
وأطلّ الصباحْ من وراء القرونْ

ثم يصف لنا ما حواه هذا القلب الخافق بمعانى الحب الهاتف للجمال ، المتغنى للشباب السعيد والآمال الباسمة وربيع الحياة قد زينته يد السحر الصناع فتجلى لعين الشاعر فى صورة قدسية الخيال ، مشبوبة العاطفة فيقول :

فى فؤادى الرحيبْ مَعبدٌ للجمالْ !
شـــيدته الحياهْ بالرؤى والخيالْ !
فتلوْت الصـــلاهْ فى خشوع الظـلالْ
وحرقتُ البـخورْ وأضـــأتُ الشموعْ

وكأنّ أبا القاسم فى هذه القصيدة قد أحسّ بقرب منيته وأن ركبه قد تهيأ لوادى الردى ، وأن سفينة العمر وشك الاقلاع الى ساحل الممات ، حيث تنعم خالدة فى ملكوتٍ صوّره لها خيالها الشعرى القوى ، فنراه يعلن للملأ أن حينه حان ، وأن وقت أفول نجمه آن ، وكلما قرأت أبياته هـذه أحسست عاطفة لا أدرى بماذا أصفها وكيف أصفها ، ولا أستطيع تصويرها ، هى مزيج من الألم الحاد لفقده ، والاعجاب المطلق بشاعريته حين يقول :

من وراء الظلامْ وهـدير الميـاهْ
قد دعانى الصباحْ وربيـع الحيـاهْ
يا له من دعاءْ هزّ قلبى صداهْ !
لم يعـد لى بقاءْ فوق هذى البقاعْ

ويقول فى نهايتها :

الوداعَ الوداعْ ! يا جبالَ الهمومْ !
يا ضبابَ الأسى يا فجـاجَ الجحيمْ
قد جرى زورقى فى الخضمّ العظيمْ
ونشرتُ القـلاعْ فالوداعَ ! الوداعْ !

وهو يذكرنى فى هـذا الموقف بشاعر مصرى ودع الحياة وهو ما زال فى شرخ الصبا ونضارة العمر وميعة الشباب ، وآثر أن يختصر الطريق وذلك هو احمد العاصى فله قصيدة تتناول نفس هذا الموضوع .

ولنرجع الى أبى القاسم فنقول إن ما تحت أيدينا من شعره الذى تناول فيه هذا الضرب من الشعر قصيدتان إحداهما بعنوان « قلب الأم » والأخرى أسماها «فى ظل وادى الموت» . أما الأولى فهى فى رثاء طفل صغير ، وانه لمن الحق أن أقول

إنى قرأت هذه القصيدة قبل نشرها فتخيلت هذا الطفل الوليد ورثيته له ، وقرأتها مرة أخرى وثالثة فأحسست نفس الشعور الذى اصطخب فى جوانحى عند قراءتها أول مرة ، وإذ عدت اليها بعد موت أبى القاسم أحسست فيها قوّة وعاطفة جياشة متفجرّة ، وشعرت بالألم العميق يحزّ فى نفسى ، وكأنما كان شاعرنا الشابى يرثى فيها نفسه ويبكى مصرع الانسانيـة ، ويذكر كيف انقضى الصحـاب وعادوا الى لهوهم ومجونهم ، وتلاشت ذكراه عند الجميع وأسدل النسيان عليه ستاراً كثيفاً فجعلوه دبر آذانهم ، غير أن هناك بين هـذه الجموع المشيّعة كلها قلباً واحداً لم يستطع ولن يستطيع النسيان أن يجد اليه سبيلا ، أتدرون لمن هذا القلب ؟

انه قلبُ الأم !... نعم قلب الأم الذى لا يندمل جرحه .

يالله من بائس صرعته آلام الحياة ولم تبق عليه الأيام أو تذر ، بل انقضّت عليه انقضاض النسر على فريسته ، وقد أنشب فيها مخالبه المعفرة بدماء السرور ، وأوغل منقاره فى شغافه فمزقه ، وألقى به مضرّجا فى غياهب الزمن العتىّ فيصرخ أبو القاسم بهذا الميت ويقول إن قلب أمك هذا :

يصغى لنغمتك الجميلة ، فى خرير الساقيهْ
فى أنّة المزمار ، فى لغو الطيور الشاديهْ
فى ضجّـة البحر المجلجل ، فى هدير العاصفهْ
فى لجة الغابات ، فى صوت الرعود القاصفهْ
فى آهة الشاكى وضوضاء الجموع الصاخبهْ
فى شهقة الباكى يؤجّجهـا نواح النادبهْ
فى فتنة الشفق الوديع ، وفى النجوم الباسمهْ
فى رقة الفجر البديع ، وفى الليالى الحالمـهْ
فى رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجومْ
فى سحر أزهار الربيع وفى تهاويل الغيومْ
فى مشهد الغـاب المجرّد والورود الهاويهْ
فى ظلمة الليل الحزين وفى الكهوف العاريهْ

أعرفتَ هذا القلب فى ظلماء هاتيك اللحودْ
هو قلب أمك : أمك السكرى بأحزان الوجودْ

أرأيتم الى أى حدّ يصف الشابى حزن هذا القلب المفجوع ، وهو يرى صورة فقيده فى كل ما تقع عليه من صور الطبيعة التى لم يفته استغلالها كمظهر من مظاهر الحزن وهى فى ذاتها مبعث السرور والجمال ، ثم هو يذكرنا بأن هذا القلب سيقضى حياته طريد الآلام والأهوال والذكرى ، كلما عصفت به الذكريات تأجّجت نيران الحزن واصطخبت أمواج الأسى ، وهو بين هذا وذاك كالسفينة تتلاعب بها الأعاصير الهوجاء ؟ ... ونحن الشباب ربما لم نكن لنشعر بهذا الحزن ، غير انى أحسسته قوياً وإن لم يكن لى ولد ، أحسست بالألم يفرى نفساً حين تذكرت أبا القاسم فخلته يبكى شبابه اللدن وقد هصرته رياح الموت ، فغيب فى قاع الثرى وهو مازال فى بُرد الشباب الغضّ ، وإن الابداع كل الابداع فى قوله يصف أمه الحزينة بأنها سكرى ؟ ولكن بماذا ؟ بأحزان الوجود !

بيد أنا نتساءل : أليس لهذا القلب الدامى مِن سلوى تنسيه هذا ، أوهلا فى استطاعته أن يتناسى فقيده ؟ الجواب عند أبى القاسم فى قوله :

لا ربة النسيان ترحم حزنه وترى بُكاهْ
كلاّ ! ولا الأيام تبلى فى أناملها أساهْ
إلا إذا ضفرت له الأقدار اكليل الجنونْ
وغدى شقياً ضاحكاً تلهو بمرآه السنونْ

وفى وصفه القلب بأنه « شقىّ ضاحك » صورة أبدع فى رسمها فكانت هيكلاً متجسداً ، فقد يستحيل اليأس قوة تجعل صاحبها هازئاً بالحياة ساخراً بما فيها ، فيضحك بملأ شدقيه ولكن ضحك اليأس والجنون ، ويعربد غير عابىء بما فى الكون من قوانين ، ولا عجب ، فالطير يرقص مذبوحاً من الألم !

* * *

أما قصيدته فى «ظل وادى الموت» التى أشرنا اليها سابقاً فنرى فلسفة الحياة والموت وصورة للتفكير العميق : من أين جئنا ولماذا والى أين ؟ وهذه الشواغل نفسها هى التى جالت بأدمغة المفكرين والفلاسفة منذ القدم ، غير أن أبا القاسم يمثل لنا صورة الموت كالرياح تقتلع الأطواد الشامخة والجبال الباذخة ، وتثير هياه

المحيط الهادئة حتى اذا تم لها ما تريد سكنت وهدأت ثورتها ... وعجيب لشاب فى الخامسة والعشرين أن يتجه تفكيره هذه الناحية المظلمة ، ولكنا نغفر له ذلك اذا علمنا أنه راح ضحيّة داء الصدر الذى زلزل حياته واجتثّ شجرتها المورقة الظلال، ولنسمع اليه وهو يصف هذه المسائل الثلاث فى لغة سلسة جميلة حيث يقول :

نحن نمشى وحولنا هاته الأكوا ن تمشى لكن لأية غايهْ ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس وهذا الربيع ينفخ نايهْ ؟
نحن نتلو رواية الكون للمو ت ولكن ما ذا ختام الروايهْ ؟
هكذا قلتُ للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البدايهْ ؟

ثم يقول عن آماله المبعثرة فى أباديد الحياة ، ويتساءل عن جده المنكود ، ويذكر أيامه وهو فى صحوة الصبا لم تطحنه الأيام ولم تنل من جسده الأرزاء فيقول عن قبره :

هاتِهِ ! فالظلام حولى كثيفٌ وضبابُ الأسى منيخٌ عليَّا
وكؤوسُ الغرام أترعها الفجرُ ولكن تحطمت فى يديَّا
والشبابُ الغريرُ ولى الى الما ضى وخلَّى النحيبَ فى شفتيَّا
هاته يا فؤاد ! انّا غريبا ن نصوغ الحياة فنّاً شجيّا
قد رتعنا مع الحياة طويلاً وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالى حفاةً فى شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا وشربنا الدموع حتى روينا
ثم ماذا ؟ هذا أنا صرت فى الد نيا بعيداً عن لهوها وغناها
فى ظلام الفناء أدفنُ أيّا مى ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمتٍ محزنٍ مضجرٍ على قدميَّا
جفَّ سحر الحياة يا قلبىَ البا كى ... فهيّا نجرّب الموت هيّا !

ولست أعلق على هذه القصيدة أكثر من أن أقول أن ما فيها من تفكير قلّ أن يتاح الا للنادر، وهى تطلعنا على ناحية من نواحيه النفسية ليس المجال هنا لشرحها

وهو فيها أيضاً فيلسوف يبكى حظ الانسان ، ومن القصائد النادرة التى تمثّل لنا هذا النوع قصيدة تسمى «مشعلة النوتى أوالروح الذابلة» سنتكلم عنها فى حينها نرى فيها الشبه الكبير بينها وبين قصيدة الشابى .

* * *

ولأبى القاسم الشابى ولع شديد بالطبيعة ، فهو يستغلها استغلالاً كلياً وجزئياً فى قصائده الرائعة ، وان مطالعَ شعره ليرَى صورة باسمةً من بلاده كما صوّرها فى شعره الفنان ، ولا يفوته أن يستشهد بالطبيعة فى ثنايا كثير من أشعاره ، وقد يقف موقف الخشوع أمام مظاهر الطبيعة القوية ولكنهاوقفة الجبار المنهزم الأسير، وهو فى هذا الضرب يأتى لنا بمعانٍ نادرة قد تستعصى على كثيرين ، وإن كنا نلمح فيها الرمزية واضحة . وإن أعجب فعجبى لهذا الشاب الذى يقف أمام الليل ، وتداخله الحيرة والعجب والخشوع والاطمئنان ، ويشعر باللذة والالم ، ويجيل بصره أمام هذا الجبار العنيد كأنه لغز القرون لا تعرف له سرّاً فيقول :

أيها الليلُ يا أبا البؤس والهو ل ويا هيكل الزمان الرحيبِ
فيك تجثو عرائس الأمل العذ ب تصلّى بصوتها المحبوبِ
فيثير النشيد ذكرى حياةٍ حجبتها غيوم دهر كئيبِ
أنت يا ليلُ ذرة صعدت للكو نِ من موطىء الجحيم الغضوبِ
فيك تنمو زنابق الحلم العذ ب وتذوى لدى لهيب الخطوبِ
يهجع الكونُ فى طمأنينة العصفو ر طفلاً بصدرك الغريبِ (١)

وقد يظهر لنا فى مسوح الفيلسوف الناسك الذى خبر الحياة عن قرب فوضح له المبهم منها على الآخرين ، وافترع سرّها ولمس ما فيها من أذى وألم ، ولا تفوته الحكمة الرائعة يستمدها من صميم نفسه ووجدانه حين يقول :

لا يغرنّك ابتسامُ بنى الأر ض فخلف الشعاع لذع اللهيبِ
لا تحاول أن تنكر الشجو ، انى قد خبرت الحياة خبر اللبيبِ
كن كما شاءت السماء كئيباً أىّ شىء يسر نفسَ الأريبِ ؟!

(١) قارن بين هذه القصيدة وبين قصيدة الشاعر شلى « Night » .

أنفوسٌ تموت شاخصةً لا هول في ظلمة القنوط العصيب؟!

وقد يثير شاعريته مرأى المساء وسكونه، فاذا بروحه تحلّق في عالم غير هذا العالم الأرضي وترتفع عن مادية الحياة، ويظل فكره هكذا منساباً في أودية الخيال تحمله على أجنحتها ملائكةُ الشعر الى مجاهل بعيدة عن عالمنا هذا، فنراه يصوّر كل هذا بريشته السحرية أبدع تصوير، وكأن هذا البيت المفرد الذي نسوقه أروع قصيدة تخلق في ذهن سامعها عالماً آخر إذ يقول:

ما سكونُ المساء الا أنينٌ ونشيدُ الصباح غيرُ نحيبِ

عجباً!... كيف يتأتى لشاب هكذا ما زال في فجر شبابه أن يرى هذه الصورة العابسة المتجهمة للحياة؟ ترى ماذا يكون حاله لو مد الله في حياته الى سن الشيخوخة؟ كل ما نظنه هو أنه لو عاش لغنى لنا على قيثارته السحرية أبدع ألحانٍ يترنم بسحرها الوجود، ويطمئن الى أنغامها الحزين، ولا عجب فلهيب احتراق الشاعر هو شعلة الخلود، غير أنه يصوّر لنا حزنه الأليم في بيتين:

يا لقلب تجرّع اللوعةَ المرَّ ةَ من جدول الزمانِ الرهيب

ومضت في صميمه شعلةُ الحز نِ ففشّتْه من شعاع اللهيبِ

ويقول في قصيدة أسماها «الملل الأليم»:

سئمتُ الليالي وأوجاعها وما شعشعت من رحيقٍ وصاب

فأين الأماني وألحانها وأين الكؤوس وأين الشراب؟

لقد سحقتها أكفُّ الظلام وقد رشفتها شفاهُ السراب!

ولم ينس أن يبثّ شكواه من دائه العضال الذي استحكم فيه في كثير من قصائده وكيف لا يشكو وكيف لا يتألم وهو يرى المرض يصارعه ويسير به سريعاً الى ظلام الفناء؟ فكان يتشبث بالحياة ويودّ لو يرتشف كأسه منها كما يرتشف غيره ممن هم في مثل عمره، ونراه يشكو الى الشعر هذه العلة التي أودت به وما يلاقيه في مجاهل الزمن من أشواك تقطع نياط قلبه وتخترق شغافه فتنساب قطرات دمه الحار في نهر الحياة شعراً رائقاً عذباً سائغ المورد فيقول:

يا شعرُ: قلبي مثلما تدرى شقيٌّ مظلمُ

فيه الجراحُ النجلُ يقطر من مغاورها الدمُ

جمدتْ على شفتيه أرزاءُ الحياة العابسهْ
فهو التعيسُ به مرارةُ القلوبِ البائسهْ
أبداً ينوح بحرقةٍ بين الأمانى الهاويهْ
كالبلبل الغرِّيدِ ما بين الزهور الذاويهْ !

ويخاطب قلبه أن تجلد فما نال لذّات الحياة الا الجسور، ويهدّئه من روعه المضطرب ويطمئنه عله يكفّ عن صراخه وعويله فيهتف به :

يا قلبُ ! لا تسخط على الأيام فالزهرُ البديعْ
يُصفى لضجّاتِ العواصفِ قبل أنغام الربيعْ
يا قلب ! لا تنقنع بشوك اليأس من بين الزهورْ
فوراء آلام الحياةِ عذوبةُ الأملِ الجسورْ !

* * *

وللشابى قصيدة نظمها وقد ذهب مستشفياً فى بلدة تدعى (عين دراهم) خلدها فى شعره وهو يصوّر فيها نفسه بين شياهه وخرافه وأسراب الطيور فوق الأفنان تلقى ألحان الهوى ويلقن بعضها بعضاً أناشيد الحياة السعيدة . فى هذه البلدة قضى الشاعر عهداً « شعرياً وديعاً خالصاً » للشعر والاحلام حيث الطبيعة العذراء والغابات الملتفة الهائلة والجبال الشمّ المجللة بالسنديان فيقول :

قد أفاق العالمُ الحىُّ ، وغنى للحياهْ
فأفيقى يا خِرافى وهلمّى يا شياهْ
واتبعينى يا شياهى بين أسراب الطيورْ
واملأى الوادى ثغاءً ومراحاً وحبورْ
واسمعى همس السواقى وانشقى عطر الزهورْ
وانظرى الوادى: يغشيه الضباب المستنيرْ
واقطفى من كلأ الأرض ومرْعاها الجديدْ
واسمعى شبّابتى تشدو بمعسول النشيدْ

نغمٌ يصعد من قلبي كأنفاس الورود
ثم يسمو طائراً كالبلبل الشادى السعيدْ !

فهو فى هذه الابيات السالفة يعرض عليها صورة مستحبة من صور الطبيعة الفاتنة وقد أخذت الارض زخرفها وازّينت ، والفجر قد انبثق عموده وغشى الوادى ذلك الضباب الرائع وما إخاله الا قصيدة ملموسة من صور الطبيعة ومما افتنّ فيه أبو القاسم افتناناً يجعلنا نقف معجبين بهذه العبقرية الرائعة . وصف العشب بأنه :

أرضعته الشمسُ بالضوء وغذّاهُ القمرْ (١)
وارتوى من قطرات الطلِّ فى وقتِ السحَرْ

ولكن هذه النغمة الحزينة التى لمسناها واضحة وعرفنا السر فيها لا تلبث أن تتخذ لها مكاناً فى شعره حين يختم قصيدته قائلاً :

لن تملّى يا خرافى فى حمى الغابِ الظليلْ
فزمانُ الغاب طفلٌ لاعبٌ عذبٌ جميلْ
وزمانُ الناس شيخٌ عابسُ الوجهِ ثقيلْ
يتمشّى فى ملالٍ فوق هاتيك السهولْ
لك فى الغابات مرعاىَ ومسعاىَ الجميلْ
ولىَ الانشادُ والعزفُ الى وقتِ الاصيلْ
فاذا طالت ظلالُ الكلأ الغضِّ الضئيلْ
فهلمّى نرجع المسعى الى الحىّ النبيلْ !

وبعد ، فهذه كلمة صغيرة ألممنا فيها اجمالاً بعبقرية ذلك الشاب الذى فقده الشعر

---

(١) فى هذين البيتين معنى رائع قلّ أن يتسنى الا للشاعر المفلق ، وقديماً أعجب النقاد بقولى شيلى :

A Sensitive Plant in a garden grew
And the young winds fed it with silver dew
And it opened its fan-like leaves for the light
And closed them beneath the kisses of night.

ولا حاجة بنا للتعليق فالشبه قوى ، وفى هذا دليل على عبقرية فقيد تونس .

العربى وقد كان يؤمل منه أن يزيده زيادة عظيمة تتمثل فيها روعة المعنى وابداع التفكير مع فلسفة قوية وعدم الاكتفاء بالنظرة السطحية بل كان يتعمق فيما يراه ويحسه وان له فى شعره تراكيب تخلق أمام القارىء صوراً فتانة تدهش المطالع .

واذا كان من الواجب أن نلم بحياة الشاعر حتى يكون التأريخ حقاً فمن الأسف أن ليس تحت أيدينا ما نستمدّ منه صورة حقيقية أو أقرب إلى الحقيقية بالنسبة الى أبى القاسم ، وقد طالعنا حديثاً فى مجلة (الرسالة) مقالاً بعث به الأديب التونسى حسن سياله أشار فيها إلى أن أبا القاسم إنما كان يكثر من قراءة كتابات جبران خليل جبران النثرية ، وكذلك جاء فى الكتاب الآنف الذكر (الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر) ففيه معلومات شائقة يمكن للقارىء أن يكوّن منها صورة ولو أنها صغيرة إلا أنها تطلعُ القارىء على جانب من حياة أبى القاسم .

وفى هذا الكتاب نفسه يقول مؤلفه إن أبا القاسم كانت له طريقتان فى نظم الشعر : أما الأولى فحين يحاكى القدامى وينهج على مناهجهم ، فيأتى قصيده على رويّ واحد وقافية واحدة ، كما يأتى بالكلام العربى الفصيح ، أما حين ينطلق من إسار التقليد فهو يشدو أغانى مستعذبة تحسّ فيها بصدى الروح الهائمة فى جنان الخيال ، وفراديس الحسن والجمال ، ومما يطمئن نفس القارىء أن النوع الأول من شعر أبى القاسم قليل نادر ، وأكثره ما كان يطلق فيه نفسه على سجيتها دون قيد فيغنى للحب والجمال والحرية ، ويحلق فى أودية عميقة كلها سحر وفتنة ، وروعة وعظمة .

ومهما يكن من أمر الشعر فى العصر الحديث ، فلا شك انه بدأ يتخذ وجهة تخالف الوجهة السابقة التى درج عليها معظم الشعر العربى فى كثير من عصوره الماضية ، كما بدأ يتحرر من القيود الصناعية واللفظية ، ولم يبال بصرخات الفزع وصيحات الاضطراب المحمومة التى أرسلها أصحابها أنصار التقليد ليقيدوا من حدّة الشباب الثائر وليكبلوه بأغلال أبى أن يظل مقيداً بها فثار عليها محطماً إياها ، ورأينا صوراً فتانة فى الشعر العربى الجديد ، سواء فى مصر أو سوريا أو العراق أو سنغافورة أو تونس ، وكان لأدباء المهجر الامريكى فى ذلك يد لا تجحد آثارها ، فها نحن ذا نلمس فى أشعارهم روح الفن متجلية فى كتاباتهم النثرية والشعرية على السواء ، وهاهى ذى آثار جبران وكتابات الريحانى وإيليا أبى ماضى وميخائيل نعيمة والياس قنصل

كلها تشهد بما عليه أولئك الأدباء والشعراء من نفس أبت إلا أن تبثّ فى الشعر العربى روح الفن هوية ، فاتجهت آثارهم اتجاهاً يخالف من عارضوهم بل هم ابتدأوا من حيث انتهى غيرهم فلا عجب اذا وجدنا فى أبى القاسم هذه الروح الكريمة التى نحييها فى شعره وذلك لتأثره بأدبهم .

أجل ... إن الشعر شعر فى كل عصر ومصر، وليس فى الشعر ما يسىء الى نهضته إلا ذلك التقليد الأعمى فى المعانى ولو اقتصر الحال على الألفاظ لكان فى ذلك جدوى وبعض نفع ولكن الامر تعدى ذلك الى الاغارة على الأخيلة القديمة ونسجها فى كلمات موزونة مقفاة ، ولا شك أن هذا يرجع بطبيعة الحال الى ضعف ملكة الابتكار وضحولة التفكير الشخصى ، والزمن يتطور والانسان تابع للعصر الذى هو يعيش فيه ، فما دامت الحال هكذا وجب أن يشمله هو الآخر هذا التطور وأن يساهم فيه بنصيب ولو قليل ، حتى يتسنى له أن يساير الحركات الفكرية التى يتأثر بها الادب ، والتى تختلف باختلاف العصور والازمنة وطبيعة الشاعر ومؤهلاته العلمية والادبية بل والبيئة التى يحيا فى ظلها لأنها تؤثر فيه تأثيراً ملموساً ، لا يمكن لاى شخص أن يتجاهله أو يتناساه .

كان أبو القاسم من ذلك الفريق الذى أبى أن يظل أسير ألفاظ وعبد تقليد ، فلم يعبأ بكل ما لاقاه من جحود فضله ، وثار على هذه المنظومات الرديئة ، وحاول أن يحلّق فى سماء الفكر العميق فكان له ما أراد ، وكانت له من ذلك ذخيرة أدبية ثمينة نلمس بعضاً منها فيما تحت أيدينا من شعره القوى ، واذا كان الرجعيون يعدونه اثراً فى ذلك الا لأنه أطلق نفسه من القيود الغثة وأرسلها على سجيّتها .

قد يسبق الشاعر جيله ، فينكر عليه مواهبه ، ويحاول أن يحطم عواطفه ، ويرسل عليه الشتائم غير مدقق التفكير ، ولو أنه نظر اليه نظرة مجرّدة عن العوامل الشخصية لرأى تحت هذا الرّماد ناراً تتأجج ، وجمراً يتقد ، وعواطف ملتهبة ، ونفساً شاعرة ، واحساساً قوياً ، وروحاً تسمو عن معالم هذا الوجود المادى ، وتعبر الحياةَ الى وادى الخيال ، فترى بين عقلها الباطن ما يستحيل على النظرة المجرّدة السطحية أن تلمسه أو تشاهده . وفى القرن الماضى أنكر البعض على شلى عبقريته ، وحارب فنّ كيتس ، بل رأينا بن جونسون يقف موقف العداء ازاء أشعار توماس جراى ، وما كتبه فى كتابه عن (حياة جراى) انما هو صورة للحقد المتغلغل فى النفس ، كما أنكر عليه قوة إبداعه فى مرثيته التى كتبها فى فنا

كنيسة بالريف[1] مع أن النقاد أجمعوا على عدّها أروع مرثية فى الأدب الانكليزى على الاطلاق . وهذا الموقف الذى وقفه جونسون من جراى يقفه اليوم أنصار التقليد وأعداء العبقرية من كلّ مجدّد فنّان مطبوع ما دام لا يحذه حذوهم ولا يسلك مسلكهم... فاذا رأينا اليوم من يقف موقف الاستنكار من شاعرية أولئك المجدّدين فليس ذلك بمستكثر ، وانما هؤلاء سيفضح أمرهم ذلك الجيل الجديد حينما يأخذ فى التنقيب ، فيرى أية شاعرية نهبت ، وأية عبقرية حوربت ، كما كشفت عن عبقرية شلى وابداع كيتس وعظمة بيرون .

ولعلّنا ضربنا لك المثل بهؤلاء الشعراء لأمرين : الأول أنهم من شعراء الشباب فى القرن الماضى ، وها هى ذى آثارهم تفصح لنا عن عظمتهم ، والثانى أنه أنكر عليهم ما حاولوه من جهود لمسنا اليوم آثارها فى الشعر الانجليزى .

وأبو القاسم الشابى فنان يصوّر لقارئه صوراً من حياة سحرية الاصائل ، فشعره ميثولوجيا فنية مبتكرة تدل على ما ركبت عليه نفسه من روح تأبى القيود المادية وانما تنطلق وتصور لنا أبدع الصور فى أنغام موسيقية يطيبك رنينها العذب ، فهو يهوى الطبيعة ويشبب بها فى سفره وهو عيشة للفن والشعر والاّ فكيف استطاع أن يصوّر لنا اهتزاز جسم الفتاة فى قوله :

كلُّ شىء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهودِ!

أو قوله يصف قدّها وما فيه من الابداع يغنينا عن تبيان روعته التى يلمسها القارىء فى ذلك الوصف الجميل ، مع ابتكار فى الخيال وجرأة فى التجديد ومحافظة على اللغة :

وقوام يكاد ينطق بالألحـا ن فى كل وقفـةٍ وقعود

لقد طالعنا له قصيدة فى (الرسالة) ـ عدد ٧١ ـ فاذا هو يثور على أولئك الذين رموه بالجهل وما كانوا واصفين سوى أنفسهم فرأينا ثورة الشباب ، وعواطفه الملتهبة ، وخواطره نحو هؤلاء ، وكما تبينا نفساً كأنها الجدول السلسال ينساب بين المروج فيميل الكلأ عليه ويقبله .

---

(١) راجع ترجمتنا اياها فى صفحة ٧٠٣ من المجلد الثانى من (أبولو) وقد ترجمها شعراً الشاعر م . ع . الهمشرى .

إن الشاعر المجدد المبتكر انما هو صدى وحى إلهى ، وقد لمست ذلك واضحاً حينما عرضنا عليك ماهية الشاعر عند الاغريق والرومان ورأيت أنه خالق الجمال ، ومكلف بتأدية رسالة جديدة ، والا كان صدى لمن سلفه فلا يلبث الزمن أن يطويه فى ثناياه ، وتمضى آثاره وتتلاشى ، ذلك لأنه فى هذه الحال لا تكون له رسالة يطلع بها على الناس ويفقد شخصيته أو تضعف ذاتيته المعنوية .

تختلف الأذواق وتتباين فى إدراك روعة الشعر أو عدم روعته ، وقد تتفق فى بعض الأحيان على الحط من قيمة أثر ويكون ذلك نتيجة لقاعدة درج عليها البعض ولم تكن صحيحة من جميع النواحى أو على الأصح مبهمة غير محددة ، فمن ذلك مثلا أن علماء البديع يقررون أن تقارب المخارج اللفظية فى الجملة الواحدة مما يضعف أثرها فى السامعين ، ويخل من روعتها فى نفوس القارئين ، ولو جارينا هم على هذا لقلنا معهم أيضا هذا القول إزاء قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فاذا حاربنا هؤلاء الشعراء بأمثال هذه الأسلحة المفلولة لافقدنا الأدب العربى ثروة كبيرة قد تفجر بها على أيديهم ، وما الشاعر الا نفس يردده الوجود ، فيغنى له لحن الخلود ، وينشد معه أغانى الحب ، وكثيراً ما يتناول شاعران أو أكثر موضوعاً واحداً ، ويبدع أحدهما أكثر من الآخر ، ولا شك أن هذا راجع الى تأثر المجيد تأثراً قوياً ، وملابسته الموضوع ، واستلهامه نفسه أيضاً ، وتأثر عقله الباطن بهذا الأثر أو الحادث تأثراً جعله يبرع فى حياكة هندامه ، وعمق نظرته التى لا ترضى أن تأخذ الأشياء على علتها وانما تتعمق فى البحث ، وتظهر خفاياه وتجلوها جلاءً تاماً . ولعل الكثيرين من قراء الشعر ينسون أنفسهم حين يطالعون شعر أبى القاسم ، فهو يلهو بعواطفهم وخيالاتهم ، ويظهرهم على صور جديدة يجلوها للعيون ، لاشبهة فيها ولا غموض ، وهو فى تصوير آلامه من الحياة وآماله فيها يبدع إبداعاً قل أن نجد له نظيراً ، ذلك لأنه شاب والشباب فتنة وبهجة وهو يريد أن يستأثر بكل ما فى الوجود من جمال وحسن وفتنة وهو يحس فى نفسه بشعور جياش ثائر صعب عليه أن يوقفه عند حد ، ولكنه يرى نفسه وقد كبلته الحياة بقيود المرض ، وشلت من آماله ، فيأبى أن يتطامن لصولتها ويحاول أن يقهرها بما فى استطاعته من جهد ، ولكن أنى له ذلك وهى قد ألقت به صريعاً محطم الاعصاب يرى الأفنان أمامه رطبة ولا يستطيع أن يهصر عودها اللدن ؟... فليس عجباً بعد ذلك اذا سمعنا أبا القاسم يشكو ويئن ، ويكثر من الشكوى والأنين وكيف لا يشكو الحياة ولا يئن منها وهى تصميه

بسهامها الدامية ، وتحطم على صخره الحقيقة والمرض آماله الذهبية المجنّحة ، وتبعثر هذه الرغبات فاذا هي ذرات تحملها الريح ، ويلقى بها في جميع الجهات ، ولكنها تلتقى وتتحد ولكن أين ؟ في شعره وألحانه التي كتب لها الخلود .

ثم ماذا نرى في الشاعر ؟ أتريده أن يكون بوقاً يردد ما يقوله رجل الشارع ، وهو المكلف برسالة ساميه جليلة ، أم تريده أن يكون ظلاً ينظم مايريده الغير ؟ كلا ولكن الشاعر حر فيما يكتب وينظم وليس لأحد أن يقيده بوقت أو مكان بل هو كالكروان أو البلبل أو العصفور فحيثما راقته الطبيعة كان ، وأينما أثارت نفسه المرأى حن لها فغرد ، ورسالة الشاعر تتألف من ثلاث : الحب والجمال والحرية ، وإن كان هازلت يقول : إن أبوى الشاعر الحب والجمال ، فما ذلك إلا لأن أحدهما أو كليهما لا يتحقق إلا بالحرية ، أو إن شئت فقل لاتكون الحرية الا حيث الحق والجمال

وأين تجد الحق أو الحرية أو الجمال أو الحب ؟ وأين تجدها جميعاً ؟

في الطبيعة والمرأة !

نعم ففي كليهما وحي ينبثق ويوحي الى الشاعر أغاني الخلود وترانيم الأبدية التي ترن في مسمع الدهر فيخشع لوقعها ويخر ساجداً لجلالها ، وهذه هي الطبيعة التي صورها الشاعر السوري عمر أبو ريشة في قصيدته في رثاء حافظ ابراهيم حين يقول :

وُلِدَ الشاعر العظيمُ ملاكاً أودع الوحيُ قبلةً فوقَ ثغره
وسَقَت أمه الطبيعة تغذو ه ونلقى سِرَّ الخلود بصدرهْ
ورمى الحبّ قلبه بنبالٍ فجرت حولها مَنابعُ شعرهْ
فسرى شعره صدى لهواه صادقاً تلمس الشباب بوقرهْ
ومشى في الحياة يقرأ فيها أسطراً لم تكن تلوح لغيرهْ

فالطبيعة مورد للشاعر لا ينضب معينه ، ومَن هذا الذي ينكر أثرها الواضح في شعر وردسورث حتى إن النقاد سمّوه « شاعر الطبيعة » بل وهذا أثرها في ابن حمديس وابن خفاجه وأبي الطيب المتنبي ، وكيف يتجاهل الشاعر الطبيعة وهي تلك الأم الرءوم التي تحتضنه وتسر اليه معاني الخلد ، وترضعه لبان الهوى ، فالطبيعة بصورها الجذابة تلهم الشاعر وتكشف له أستارها ، فيلج بابها فاذا عالم لا يفنى كتب الخلد لمن يعبره . وبوساطتها يتسنى للشاعر أن يجلو خبايا النفس ويفضح

عن طبيعة الوجود ، ويطالع خفايا هذا العالم الذى يجرى ولا ندرى مبتداه من منتهاه ، ويجد فى كنفها بواعث الشاعرية التى تجعلها تتدفّق فى غير حدّ ، وتأبى أن تقف فى مكان خاص ، ويستطيع الشاعر الملهم حينذاك أن يصوغ ما رأى فى صورة مادية ملموسة تظهر أثر الطبيعة .

وهنا تتشعّب نظرة الشعراء اليها شعبتين ، والفارق بينهما جسيم وله خطورته ، فهما وإن كانا يبدآن من نقطة واحدة إلا أن كلا منهما ينساق فى تيار يخالف التيار الآخر كل المخالفة ، ذلك أن الفطرة الأولى التى تصوّر لك الطبيعة صورة فطرية فتذكر لك هذا الزرع الأخضر والكلأ الغضّ والأوراق الذابلة ، وتعطيك صورة « فوتوغرافية » غير منقوصة أو مبتورة للمشهد الذى تراه ، أما النظرة الأخرى فهى نظرة جديرة بالتمعن والتفكير ، وجديرة بالبحث والتنقيب على بعض أسرارها ، ذلك أنها نظرة تأبى أن تقف عند النظر الخارجى بل تحاول أن تستشفّ ما وراء هذا ، وتتغلغل فى ثنايا ما ترى تغلغلاً يمكنها من أن تطلع على العالم بمشهد رائع مبتكر غير معروف ، ومن شعراء هذا الفريق الشاعر الانكليزى وردسورث فهو فى أحدى قصائده المسماة «الشاعر والطبيعة» . يقول : « أيهذا الطلل الدارس ، لقد كنت أسكن قربك غابراً ، ومكثت قريباً منك أربعة أسابيع فى الصيف ، ويا طالما رأيت شبحك قد انعكس على أديم المياه الهادئة التى حاكت المرآة والسماء صاحية والنسيم رخاء ، والأيام بهجة فى صفحة الزمن . لقد كنت أبغى أن أكون رسامك لأصوّر ما شاهدته فيك من أنوارى الفضية . أيهذا الطلل لشدّ ما أبغى أن أقيمك وسط كون يباين كوننا هذا فى ظل خضمّ بسام . آه يا بومنت يا أخى وحبيبى ! ها أنذا أبكيك وأعنّف البحر الثائر والشطوط المحلولكة والجارية التليدة وسط الأمواج الهدّارة تحت قبة السماء الصاخبة » .[1]

فانت ترى من هذا أن الشاعر الانكليزى لم يقف عند وصف الصورة السطحية للبحر أو تصوير منظر السفينة وانما يستوحى من كل هذا صورة جديدة التركيب ، ويتغلغل فى تبيان عواطفه ويحللها تحليلا جميلا يأخذ بزمام النفس ، ويتلاعب بالشعور

---

(١) كتب ورد سورث هذه القصيدة الرائعة وقد شاهد صورة القلعة التى أبان عنها ريشة صديقه الفنان Beaument الذى ذكره فى سياق القصيدة .

والوجدان . وكذلك نرى هذا فى شعر أبى القاسم ، وقصيدته «من أغانى الرعاة» تظهر لقارئها أى عبقرية تنطوى تحت هذا الجسد المتهدم ، وقد أظهرنا شديد الصلة بينه وبين شلى فى هذه القصيدة وقصيدته عن «النبات الحساس» .وليرجع من شاء الى آثار أبى القاسم فكلها تفيض بهذا النوع من التحليل العميق الممزوج بالفلسفة وان كان الحزن فى كثير من الاحيان طابع الشاعر فذلك لما هيأته له الطبيعة نفسها من آلام ، والتى ينسى فى حضنها آلامه وجراحه ، ويستقبل الحياة مبتسماً هاشاً لها طروباً محبياً إياها فى شعره القوىّ الرصين ، وانه لمن الحق الذى لا مراء فيه أن الانسان ينسى متاعبه وآلامه النفسية حينما يفزع الى الطبيعة فيجد فيها موئلاً يقيه آلام الحياة ، وينسيه متاعبها ويذهب عنه ما يحطم أعصابه المرهفة ، وهنا يجد الشاعر المجال أمامه متسعاً لأن يصوّر بريشته ما يجيش فى نفسه وما يحسّ به . وقد نفرد لذلك مقالاً خاصاً نتناول فيه شعراء الطبيعة ونقارن بينهم لنعرف الى أى مدًى أمكنها أن تؤثر فيهم ،ولا شك أن لشاعرنا العبقرىّ أبى القاسم شعراً يتناول مظاهر الطبيعة ولكن للاسف ليس فى استطاعتنا أن نبحث فيه لانه ليس لدينا ، وربما سهل ذلك على الناقد الادبى حينما يفزع الى قلمه ليكتب عن شعره اذا ما وجد شعره كاملا بين ثنايا ديوان يحمل اسمه وحينذاك يتسنى لنا أن تكون هذه الاحكام أقرب الى الحقيقة مما هى عليه الآن .

ومما امتاز به أبو القاسم وحدة القصيد ، ومطالع شعره يلمس ذلك فيرى أن القصيدة كلها متحدة الاجزاء قوية التركيب ثابتة الدعائم ، فلا تحسّ فى أبياتها نفوراً أو فى معانيها تشتتاً ، وذلك أمر يتطلب فى القصيدة .

وعلى أية حال فان العالم العربى لن يرى تلك الثغرة التى خلفها موت أبى القاسم ، ولن يلمس أثره واضحاً ، إلا حين يطلع على ديوان شعره كاملاً غير منقوص ، ونرجو أن يكون ذلك عن قريب ليرى أدعيا التقليد والقدامى أية روعة فى التجديد ، وليحسّوا بتلك الشعلة الخفاقة فى سماء الشعر والتى كتب لها الخلود والى روح أبى القاسم تحيات الاجلال .

حسن محمد محمود

فن الشاب

« هيا يا رعاة ! هيّا ! سيطلع القمر عما قليل وسيغمر نوره الكون وسنهتدى إلى أدونيس » ـ قالت فينوس هذا بينما كانت تتسلق شعاب الجبال الصامتة فى جهد عظيم ـ « إنه ظلام حالك أيتها الآلهة المحبوبة ، لقد دميت أقدامنا من الصخر ، وكلت أجسامنا من السير ، فلا نستطيع بعد الآن تقدّماً » .

كان طريقهم وسط الجبال قد احتجب عنهم القمر ولفهم الظلام فأصبحوا يضطربون فى سيرهم كأنهم أشباح الليل أو شياطين الدجى ، قد هبّت من نوحها ، تسرح فى عالمها المظلم الكريه .

« هيا يا رعاة هيا سيطلع علينا القمر عما قليل وسنهتدى الى أدونيس ! » ـ قالت هذا فينوس وقد كادت تلفظ آخر أنفاسها من التعب ولكنها صبرتْ وجالدت وسارت فى طريقها والرعاة يتبعونها صامتين كالظلال .

كان الطريق مقفراً حزيناً يبعث الرعب والهلع وكان الظلام يزيد فى رهبته وهوله فكان كلّ شىء ملائماً لوحدتهم وحزنهم ثم طلع عليهم القمر بلون شاحب كأنه الواجم الحزين الذى فقد حبيبته وأرسل عليهم أشعة حزينة باردة زادت أحزانهم عمقاً

كان كل شىء ساكناً فكأن الطبيعة القوية الصخابة قد ماتت فى هذه البقعة الرهيبة وكأن هذا الوادى هو وادى ظلال الموت قد حرم حتى أرواح الأموات ترفرف فى سمائه .

استلقى الرعاة على الرمال وظلت فينوس تدير عينيها فيما وراء الجبال ، علها تستكشف أدونيسها العزيز ، وظلوا هكذا مغمورين بأنوار القمر صامتين ، كأن رهبة الطبيعة قد استلت منهم الأرواح وتركتهم أجساماً لا تقوى على الحراك ، ثم ما لبثوا أن قاموا يقتلعون أرجلهم اقتلاعاً وفينوس تتقدّمهم حتى وصلوا أخيراً إلى « مقبرة شاعر قد شيّدتْ فى غير أوانها لم تبنها أيد بشرية فى حنان أو إجلال ولكن بنتها رياح الخريف بما حملته من أعشاب تجمعت فوق عظامه النخرة هرماً وسط البرية الموحشة . لقد عاش ومات وصدح فى وحدته ، لقد تاق الغرباء لأن

يسمعوا نبرات صوته العذبة لقد مضى قوياً مجهولاً ، وكم تاق أناسٌ وتألموا غراماً لرؤية عينيه الفطريتين الساذجتين . ان ينابيع الفلسفة لم تبرح شفتيه الظامئتين لقد شعر وعرف كل أسرار الماضى والحاضر .

فلتبكوا يا رعاة فقد هبت العاصفة واقتلعت الشجرة وأسكت الموت شاعركم الوحيد!

فلتبكى يا خراف من كان يجيب تناديك !

فلتبكى يا طيور من كان يفصح عن أغانيك !

ولتصمتى يا رياح ، ولتقف يا نسيم فقد مات من كان يردد صداك !

أيتها الطبيعة فى الجبال والأودية ، فى البحار والغابات ، فى الليل والشفق ، فى النجوم والكواكب ، فلتبكِ لسانك الذى ينطق بك وقلبك الذى كان يخفق بحبك لقد جف ينبوع حياتى وكان قوياً جارفاً .

أيا بنات الوادى فلتبكين بلبلكن الذى كان يشجيكن بأعذب الالحان وحبيبكن الذى كان يسكركنّ بصوته الحنون »

أجاب صوت من وراء الجبال : «إن أدونيس لم يمت ولكنه حى فى السماء ، انه لم يمت ولكنه ترك عالمنا الشرير ورغب فى عالم المجد الالهى حيث ينشد هناك أناشيد الخلود بجانب عرش الإله السامى وحيث قلبه لن يبرد وشعر رأسه لن يخطه المشيب » .

* * *

كل انسان له فى هذا العالم رسالة يؤديها ورسالة الشاعر هى أسمى أنواع الرسالات فهى رسالة العالم الاسمى للعالم الارضى وما الشاعر الا رسول أمين يحمل هذه الرسالة فهو الشخص الوحيد الذى يتصل بالعالمين عالم السماء بروحه واحساسه وعالم الارض بجسمه ومادته ، فما رسالة الشابى اذن ؟ ما الموضوع الذى اتخذه مادة لشعره أو بمعنى آخر بماذا نسمى الشابى ؟ أنسميه شاعر الأودية والرعاة أم شاعر الازهار والورود أم شاعر الحب والجمال أم شاعر الطبيعة والشباب ؟! انى لا إخال هذه الكلمات الامدلولات لشىء واحد هو القلب ، فما الازهار والورود وما الطبيعة وأوديتها وما الحب ولذائذه ؟ الا انعكاسات وأصداء ترن بين جوانب القلب الانسانى فالعالم كله قلب وقلب الانسان هو قلب هذا العالم . قلب هذا العالم الاكبر الذى فيه تجمّع ومحور

هذا الكون العظيم قلب الانسان هو عرش الاله الذى بناه لنفسه يتربعه كلما نزل من عالمه السامى الى عالم الناس .

ما رسالة الشابى إذن ؟ إنى أميل الى الاعتقاد بأن رسالة الشابى هى رسالة القلب الانسانى الى عالمنا الانسانى ، ولكنى أحس بشىء من القلق وعدم الاستقرار لهذا الاعتقاد فانى أكاد لا أظفر برسالة كاملة مفصلة لهذا الشاعر الشاب . أنا لا أنكر سحر روحه وعظم تأثيرها وموسيقى أشعاره وما فيها من قوة وحركة، لا أنكر تلك القوة الكامنة والشاعرية الخصبة الدافقة فى ذلك العقل العبقرى الشاب ولكن الموت لم يمهله حتى يستكمل نضجه فهو ينظر الى الطبيعة فى ظاهرها ولا يتعب كثيراً فى النفاذ الى قلبها ، ويلمس الطبيعة بحسه ومشاعره ولا يصل اليها بعقله وفكره ، هو شاعر يحس وليس فيلسوفاً يفكر ، لذلك نسمع أصداء الطبيعة ترن فى شعره ونلمس آثارها تغمر ألفاظه ونعجب لتلك الجدّة والعذوبة والموسيقى التى تفيض على شعره .

الشابى شاعر من طراز روسو وبيرون وشاتوبريان يرى الطبيعة مأوى ومسكناً لروحه ومشاعره التى تأذت وتألمت . فاذا تغنى بالطبيعة فانما يتغنى بمظاهرها العامة : بجبالها وأوديتها وأشجارها وأزهارها ، وهو إذا قدّس الطبيعة فانما يقدس فيها هذا الجانب الذى كنى عنه روسو « بجمال المقفرة الخالية وسحرها » ، وهو اذا أوى الى أحضان الطبيعة انما يفعل هذا زهداً فى دنيا الانسان وهروباً بمشاعره من أن تصطدم بحياة اليوم العادى :

ما لنا والكؤوس تطلب منها نشوة والغرام سحر وسكرُ
خلّنا منك فالربيع لنا سا قٍ وهذا الفضاء كأس وخمرُ
نحن نغدو بين المروج ونعدو ونغنى مع النسيم المغنى
ونناجى روح الطبيعة فى الكو ن ونصغى لكونها المتغنى

الشابى شاعر كبيرون يلجأ الى الطبيعة كراهية وبغضاً للانسان فكما أن بيرون يجد فى الجبال غذاءً لشعوره وفى رؤية المدن وسماع ضجيجها أذى لسمعه وبصره كذلك يشير الشابى الى ما فى الطبيعة الصامتة من جمال وسحر إذ يقول :

لن تملّ يا خراف فى حمى الغاب الظليلْ
فزمان الغاب طفل لاعب عذب جميلْ

وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل
يتمشّى فى ملالٍ فوق هاتيك السهول

فالشابى يضيق بالناس وهو إن ماشاهم كان كارهاً وإن خالطهم كان حذراً ينظر اليهم نظرة ريب وشكٍ ، وهذا شعور يصاحب كلّ انسان صُدِم فى أمانيه سواء كان فى حب أو حظ أو شهره ، وغالباً ما يلازم هذا الشعور الشبان الذين يخرجون الى الحياة مفعمين آمالاً فلا يكادون يخطون الخطوة الأولى حتى يصدمهم الواقع فيرجعوا ساخطين متبرمين والقوىّ منهم من صمد فى الميدان :

فى شعاب الزمان والموت أمشى تحت عبء الحياة جمّ القيودِ
وأماشى الورى ونفسى كالقبر وقلبى كالعالم المهدودِ
ظلمة مالها ختامٌ وهولٌ شائع فى سكونها الممدودِ
واذا ما استخفنى عبثُ النّا من تبسَّمْتُ فى أسى وجمودِ
بسمة مرة كأنىَ أستلُّ من الشوك ذابلات الورودِ

هذا الشعور بالألم النفسى والضيق بالحياة والناس ، وهذا المنظار الأسود الذى يرى من خلاله الشابى الحياة هو بعينه الذى لازم بيرون طول حياته ، ولا أستطيع التكهّن لو امتدّ بالشابى أجله : أكان يستبدل بالمنظار الأسود منظاراً ابيض شفافاً يريه العالم على حقيقته وبوقفه على ما فيه من جمال أم كان يحتفظ بمنظاره الأسود أو يستبدله بآخر أشدّ سواداً . هذا أمر ليس إلى الحكم عليه من سبيل فقد فصل الموت بيننا وبين الشابى وبين الحياة فحال بيننا وبين الانتظار، فعلينا الآن إذن أن نبحث عن سبب هذه الكراهية وهذا الضيق الذى استولى على هذا الشاعر الشاب حتى جعله يسخط على الحياة بمثل هذا السخط المرير . أكبر الظنّ أن هذه الحدّة فى المزاج ، وهذه الحدّة فى الشعر ، وهذه الحدّة فى تلك الصيغة التى صبّ فيها هذا الشعور ، هذه الحدة التى غمرت هذا الشاعر طوال حياته القصيرة مرجعها التكوين الفسيولوجى ، فكلنا يعرف أن الرجل المريض الجسم غالباً ما يكون مريض الأعصاب فيثور لأقل شىء ويحتدّ لأتفه الأمور، وقد يكون هذا المرض أو النقص الطبيعى فى الشخص سبباً فى أن يجعله يضيق بالحياة بل ويكرهها. وهذا الشعور نفسه هو الذى لازم بيرون وكاد يفقده عقله فى بعض الأوقات ، فالمرض أو النقص الطبيعى

ثم الاحساس بهذا النقص أو الشعور والتفكير فى ذلك المرض هما اللذان يتسلطان على الانسان وهما يستطيعان أن يخلقا من الهادىء الرزين إنساناً ثائراً متمرّداً . هذه الثورة وهذا التمرّد قد يظهران فى القول كما يظهران فى العمل ، وقد يصل هذا الشعور بالشخص لاسيما اذا كان ضعيف الارادة الى الجنون . هذه الحالة النفسية نجدها ظاهرة فى بيرون الذى كان نقص أحد قدميه ثم شعوره بهذا النقص مصدر كثير من الشقاء والألم له ، هذا الشعور بالنقص هو الذى جعله يصرخ حانقا : « اذا ابتسمت لشىء فهو لكى لا أبكى ، لقد سرت فى طريق للحياة حالك قذر ، وسلخت من العمر ثلاثاً وثلاثين فماذا أبقت لى هذه السنون ؟ لا شىء غير ثلاث سنين » . هذه الأبيات هى جماع فلسفة رجل قد استنزف كل مسرّات الحياة حتى وصل الى قرارة راسبها الشديد المرارة .

ولقد كان الشابى مصدوراً وكان يشعر بصدره دائماً يعمل فيه هذا المرض القتال فليس عريباً أن يضيق الشابى بالناس وليس غريباً أن يتبرّم بالحياة بل ليس كثيرا على شاعر غزير الاحساس يشعر فى قرارة نفسه بمصابه ويفكر فيه دائماً ، ليس كثيراً على شاعر وهب شاعرية خصبة كالشابى يرقب أفول نجمه شيئاً فشيئاً كلما تمكّن منه الداء ، ألاّ يرى فى الحياة إلا الجانب الأسود منها وأن يقول :

فاهمى الناس إنما الناس خلق مفسد فى الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليل غريباً فى أهل هذا الوجود

قلت إنّ الشابى كبيرون وروسو مفتونون بمظاهر الطبيعة الخلابة كالجبال والأوديه والمراعى ولكنه لم يصل الى قلب الطبيعة العميق بل استقر على سطحها كالغريب الآيب من سفر طويل لا يكاد يجتاز عتبة داره حتى يلقى بحمله وبنفسه . فالشابى قد تأذى كثيراً من الانسان وقد أصيب فى أعز شىء لديه وهو قلبه موطن إحساسه وشعوره فهو لا يكاد يترك دنيا الانسان ويصل الى رحاب الطبيعة حتى يكون السفر قد أضناه فلا يكاد يخطو بعض خطوات فى هذا العالم الجديد حتى يلقى بحمله ليستريح ، فهو لم يصل الى ما وصل اليه وردزورث فى نظرته وشعوره للطبيعة : فوردزورث اذا أنصت الى الطبيعة فانما ينصت الى صوت الانسانية ، وهو اذا تغنى بالطبيعة فانما يتغنى بالتزاوج الحقى بين عقل الانسان والكون . الطبيعة فى نظر وردزورث ليست الجبال والأودية والمراعى كما هى فى نظر بيرون والشابى ولكنها هى الروح الحقيقيه الخالدة . وردزورث يرى ان الانسانية جزء من الطبيعة لا ينفصل : الانسان والطبيعة

شيء واحد وليس هناك انفصال ولا تمييز بين حياة الانسان وحياة الطبيعة . وردزورث يرى أن العالم والعقل الانسانى طاقتان أوقوتاز لعالم واحد . هذان هما الجانبان الحقيقيان الضروريان للكمال الانسانى ، هما امتزاج الروح المحدود بالتجربة الشخصية ، امتزاج أفكار الأبدية بأشياء اليوم العادى .

فالشابى شاعر الطبيعة الظاهرة ، شاعر مناظرها : انهارها جبالها أصداؤها ، وليس شاعر أسرارها ، فهو يكلف بهذه المناظر ويحب ألا يتركها بل يودّ أن يصبح جزءاً منها ومن أجل ذلك جاء شعره مفصحاً عن هذه المناظر ، فهو اذا أفصح فكأن لطبيعة تفصح ، واذا أنشد فكأن العالم الطبيعى ينشد .

أجل ، لقد أفصح لنا الشابى عن أنغام الطبيعة المسموعة ، ولكن للطبيعة أنغاماً صامتة ، وهذا مالم يصل اليه الشابى وربما كانت هذه الأنغام الصامتة أعذب وأكثر موسيقى من تلك الأسجاع المسموعة .

ومن الغريب أن يستقى هذا الشاعر من تلك النيابيع التى استقى منها وردزورث فيأتى شعر هذا الشاعر التونسى قوىّ الشبه بشعر هذا الشاعر الانجليزى الذى عاش قبله بأكثر من قرن .

فكلا الشاعرين قد تغنى بالطفولة الأولى وشاد بسعادتها الحلوة العذبة ، وكلاهما قد ندم على فراقه لها . كلاهما يعتقد أن مجد الاله العظيم قد توارى عن الأرض بذهاب الطفولة ، وأن هذا المجد ونور الاله السماوى يأخذ فى الابتعاد عن الأرض شيئاً فشيئاً كلما أخذ الطفل فى النمو . فبعد أن يكبر الطفل ويصبح رجلا نجرفه الحياة الصاخبة فى طريقها فينسى ماضيه الجميل وأيامه الأولى السعيدة ، فبينما الشابى يقول :

قد كنت فى زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا تحفل الدنيا ، تدور بأهلها أو لا تدور
واليوم أحيا مرهف الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الاحساس ، أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشى على قلبى الحياة ويزحف الكون الكبير

إذ يقول وردزورث :

« قد أتى علىّ وقت كنت أرى فيه المراعى والحراج والجداول والأرض وسائر المرائى متشحة بالأنوار السماوية كأنها مجد وبعث لحلم ، وهى الآن غيرها بالأمس. دورى كيفما شئت ليلاً أو نهاراً . ان هذه الأشياء التى شاهدتها سوف لا أراها من جديد ، ما أحب الورد يغشيه القمر بنوره البهيج عند ما تصفو السماء من الغيوم ، وما أجمل المياه فى الليالى المرصعة بالنجوم ! إن ضوء الشمس ميلاد عظيم ، ولكنى أدرك مع ذلك حيثما ذهبت أن مجداً قد توارى عن الأرض .

أيها الطفل الصغير العظيم فى حمى ـ وليد السماء ـ الحرية التى ترفرف عليك ! لماذا تثير السنين بتلك الآلام المضنية لتجلب ذلك النير المحتم وتحارب سعادتك فى غير تبصر ؟

إن روحك سرعان ما تندمج بالأرض ، وتتسلط عليك العادة بأعبائها الثقيلة كالجليد ، العميقة كالحياة » .

صلوات فى هيكل الحب

تذكرنى هذه القصيدة « باندميون » لجون كيتس حيث يقول كيتس فى مستهلها « إن الشىء الجميل فرح دائم ، إن سحره فى ازدياد ولن يتلاشى ، ولكنه يحتفظ لنا بخميلة هادئة نرتمى تحت ظلالها ويعدّ لنا نوماً مشبعاً بالأحلام الحلوة والأنفاس السليمة الهادئة » .

يرى الشابى فى هذه القصيدة ما يراه كيتس فى مستهل انديميون أن الحب مأوى آمن من قسوة هذا العالم ومن شروره :

عذبة أنت كالطفولة ، كالاحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليـــد
أى شىء تراك ؟ هل أنت فينوس تهادت بين الورى من جديد
لتعيد الشباب والفرح المع سول للعالم التعيس العميد ؟
أم ملاك الفردوس جاء الى الأرض ليحيي روح السلام العهيد ؟
أنت ، ما أنت ؟ ! أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مقدّسٍ معبود

كل شيء موقّع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود
أنت .. أنت الحياة فى قدسها السامى وفى سحرها الشجىّ الفريد
أنت دنيا من الاناشيد والاحلام والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر ؛ والفن وفوق النهى وفوق الحدود
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وربيعى ونشوتى وخلودى

* * *

فشعره ترجمان لما يجول فى ذلك الخاطر القوى الجبار من تصور دنيا جديدة ، دنيا بعيدة عن دنيانا ، دنيا أقرب الى دنيا الخيال منها الى دنيا الواقع . ولكنها على كل حال ليست دنيا العقل والمعنويات الدقيقة ولكنها مزاج من الحقيقة والخيال ، مزاج من الحس والفكر . فهو اذا تصور الحب لا يتصوره بين السحاب أو فى أودية القمر ولكنه يتصوره فى عالمنا . وليس عالمنا المملوء حقداً وبغضاً ، عالمنا المملوء شهوة وخبثاً ، ولكنه عالمنا النقى الذى خلص من كل الرذائل وتحرر من كل الشهوات ولم يبق فيه إلا الحب يسود ويتحكم .

فالشابى ليس مثالياً فى حبه كشلى ، وليس حسياً كبيرون ، ولكنه شاعر قد وهب احساساً مرهفاً يحس بكل ما حوله وشعوراً دقيقاً جداً يأبى عليه المكث فى هذا العالم فيلح عليه بالانفصال منه والتحليق فى واد كله جمال وسحر . هذا الجمال ليس حسياً خالصاً وليس معنوياً صرفاً ولكنه ـ كما قلت ـ فيه من الحسية وفيه من المعنوية حظ كبير .

* * *

حقاً لقد قدم لنا الشابى صوره الشعرية فى أسلوب شعر جميل حتى أصبح له أسلوب خاص مطبوع به نستطيع أن نميزه على شعراء هذا العصر : هذا الاسلوب الشعرى الخاص هو صوره وتشبيهاته الجميلة كقوله :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام كاللحن ، كالصباح الجديد

هل هذه مجرد كلمات وضعت بجانب بعضها ؟ وهل سحر هذا التعبير الشعرى موجود فى موسيقى الكلمات وحسن اتساقها وملاءمتها أو توافقها لتحدث نغمه موسيقية بله توافقاً موسيقياً جميلاً ؟

إن جمال هذا التعبير بل خلوده ليس آتياً من الموسيقى الشعرية فحسب وليس آتياً من المعنى الشعرى السامى ، هذا المعنى البرىء كالطفولة ، العذب كالأحلام ، الموسيقى كاللحن الجديد ، كالصباح ، ولكنه آت من ارتباط اللفظ بالمعنى وامتزاج الصورتين الحسية والمعنوية : هذا الامتزاج القوى بل هذا التفانى أو التلاشى أو الموافقة التامة — سمّه ما تشاء — بين اللفظ والمعنى .

***

هذا هو الجديد فى شعر الشابى ، وهذا هو الذى يميزه على شعراء هذا العصر . فهو الشاعر الوحيد فيما أعتقد الذى استطاع أن يجول فى عالمين : عالم الحس أو الواقع الذى نشغله بأجسامنا ونملؤه بحواسنا وعالم الفكر والسمو الذى ندركه أو نحاول إدراكه والدنو منه بأفكارنا وأشواقنا ، واستطاع أن يقدم لنا صورة كاملة لهذا الجمال المزيج فى كلام قوى وأسلوب شعرى دافق

***

يا ابنةَ النور ، إننى أنا وحدى مَن رأى فيكِ روعةَ المعبود
فدعينى أعيش فى ظلك العذب وفى قرب حسنك المشهود
عيشةَ للجمال والفن والالهام والطهر والسنى والسجود !

***

ليس الجمال فى هذه التعابير الشعرية فى موسيقى الكلمات أو حسن وقعها فى الأذن أو سرعتها وحركتها وانسيابها أو ما فيها من حياة حية فحسب بل لما فيها من نماذج الحسّ وصوره ممتزجة بصور الذهن كقوله «يا ابنه النور» . ان هذا التعبير الشعرى الذى لم يخطر بذهن شاعر عربى على ما أذكر لا يولد فينا عاطفه حسية فقط ولا عاطفة ذهنية فقط ولكنه يبعثنا على أن نفكر ونحسّ معاً أو نحسّ ونفكر معاً حتى ندرك هذه الصورة الجميلة حقاً البديعة حقاً التى يريد الشاعر أن يتصورها . وهذه الصورة البديعة الجميلة لا يمكن للحسّ وحده أو للفكر وحده أن يهتدى اليها بل لا بدّ من اقتران الحسّ والفكر معاً .

لا بدّ من عمل العاطفة والعقل معاً حتى نقف على هذه الصورة كاملة فى بهاها وجلالها وروعتها .

***

وبعد ، فهذه خطرات سريعة عاودتنى اليوم إذ ذكرتُ هذا الشاعر الشاب الذى لم يفسح له الزمان فى السمر فعصف به عصفَ الريح العاتية بأوراق الخريف الساقطة ، فطويت من الوجود صفحة حافلة بكل معانى الشعر والحب والجمال وسكت بلبل صداح كان يشجى العالم بأغانيه العذبة وألحانه الشجيّة .

هذه خطرات طافت بفكرى على ذكر هذا الشاعر الشاب الذى قضى ولم يكتمل نضجه بعد ، أنشرها اليوم عليها تقوم ببعض الواجب نحو هذا الشاعر الغريب الذى لم تره عينى ولم تسمعه أذنى ولكن أحبَّه قلبي وكان نعيه شديداً على نفسى .

ولست أدعى أنى قمت بشىء نحو هذه العبقرية الشابة التى هوت من سماء مجدها كما تهوى جبابرة الملوك وأعاظم الدول ، فانى لأشعر حقاً بعجزى المطلق أمام هذه العظمة الخالدة ، وأعتقد فى قرارة نفسى بحرية تلك العظمة واستقلالها وغناها عن كل شرح وتمجيد ؟

نظمى خليل

(بكالوريوس فى الأدب الانجليزي)

عبد الحليم حلمى المصرى (١)

ثالثُ الشعراء الضباط ، نضج وهو بعد فى فجر أيام الشباب يطلب العلم فى المدرسة الحربية . نظم أول ما نظم فى الفخر وأكثر من ذكر العلم والسيف ، على أن صاحبنا وإن لم يقل أن الخيل والليل والبيداء تعرفه ، ولم يذكر الصلة الوثيقة التى تربطه

عبد الحليم حلمى المصرى

بالسيف والقرطاس فاخراً بسيفه وقلمه ، فانه اعتز بأدبه ووثق من فروسيته فى إسراف غير مملول ، وإلا فما بالك برجل لم يشهد الصراع إلا فى الصور التى تلقن له فى المدرسة ولا يستطيع أن يصول بسيفه إلا وسط الجدران الأربعة التى تحيط بفراشه ومع ذلك يقول من قصيدة غير طويلة :

---

(١) عن كتاب (شعراؤنا الضباط) الذى سيصدر فى الشهر المقبل .

ألم تهزّك أشعاري ولي قلم إذا جرى هزّ تيجان السلاطين
وصارم في الوغى لو هجته انبعثت له المقادير بين الكاف والنون ؟!

ويزعم الكثيرون أن هذه القصيدة أول ما قال عبدالحليم من الشعر وإن كان قد عاد فاقتطع بيتيه اللذين تمثلنا بهما هنا وأنشدهما في (نونيته) التي جاء في مطلعها :

(لا ترشديني وخلي الشوق يهديني لعل يدنيهمو ما كان يقصيني)

ولكني لا أعتقد بحال ما أن هذه بداية شاعر ، بل هي صرخة شاعر فحل قد أكثر من الصياح .

والواقع أنك تجد في شعر الطور الأول من حياة عبد الحليم نضوجاً وقوة لا تجدهما في شعر الكثيرين من أعلام القريض في عصره ، وتكاد لهذا لا تحسّ بتبدل كبير في شعره طوال أيام حياته ، إلا أنك ستجد أنه انصرف الى الأنين والشكوى والحنين الى مصر طوال حياته في السودان ، فلما جاء مصر وخلا الى نفسه ليقرض الشعر حراً طليقاً بدأ الطور الثاني من حياته الشعرية فأكثر من المديح . ولعل شاعرنا أرغم على هذا من أجل الدنيا ... ولكن كانت هناك نواح كثيرة كان من الضروري أن يساهم فيها بشاعريته الفذة ، على أن عبد الحليم قد بدأ في أواخر أيام حياته يكتب تاريخ الخلفاء ـ أولى حلقات التاريخ الاسلامي ـ وكان هذا أثراً جميلا لو تمّ إلا انه مات قبل أن يتمه .

وشاعرنا هو عبدالحليم بن اسماعيل حسني افندي . وُلد بناحية (فيشا) من أعمال (دمنهور) في مايو عام ١٨٨٧ [1] ودخل المدرسة الحربية بعد أن أتم دراسته الابتدائية وهو يحبو الى سن الشباب ، وبرحها بعد عامين في يونيو عام ١٩٠٦ في التاسعة عشرة من سني حياته ، وأُلحق بالأورطة السادسة عشرة المشاة في كسلا ، ولم تستمر حياته في السودان طويلا ، وسأحدثك عنها عند ما تصل الى شعر الشكوى والحنين الى مصر .

والواقع أن عبد الحليم بدأ طوره الأول بالشعر السياسي الذي كان يمتلىء وطنية . وحديثه عن الوطنية والحرية ليس حديث صناعة بل من وحي روحه ، واسمعه يتحدث الى الحرية من قصيدة طويلة جاء في مطلعها :

---

(١) الجزء الخاص بمولده ونسبه ومالم ينشر من شعره قد تفضل بكتابته حضرة شقيقه عباس حلمي المصري المهندس .

حلا لها البينُ فانجابت عن المقل ولم تودع قبيل السير من رجل

فيقول .

عودى ! أطلى علينا ! إننا نفر إن حلت عنا فانا عنك لم نحل
الدهر غيرنا حتى اذا بعدت بنا الديارُ غدت منا على دخل
نأوى اليها بنا مما بها ظمأ وكلنا طلل يأوى الى طلل
أصبحت فى غير وادى النيل ثاوية والشمس فى الحوت غير الشمس فى الحمل
ماذا جنينا ونحن الواهنون كما قالوا وذو الوهن لا يجنى على البطل؟
فايه يا مصرُ إن جاروا وإن عدلوا قد ينشأ البرء أحياناً من العلل

وسترى شاعرنا يكثر من الزجر كما أكثر حافظ منه ، وسنسمعه يخاطب المصريين جملة . ولكن عبدالحليم لم يكن قاسياً ، ولن تجد السخرية اللاذعة التى عُرف بها حافظ وحدثتك عنها فى قصائده عن مأساة دنشواى وسقت لك مثالاً منها فى قوله (أمة النيل أكبرت أن تعادى — البيت) وقد تجد بعض العنف فى حملته ولكنه عنف ترضاه ولا تضيق به ، واسمعه يقول :

يا أمة أبصرت فى الصبر مكرمة أيخمد الصبر مضروماً من الشعل ؟
أراك ندابة فى كل حادثة والندب لم يجد صوب الحادث الجلل

وليس هذا إلا لأنه :

أتى زمانُ نهوض وانقضى زمنٌ كان البكاء يُرى فيه من الخيل

وإذن ماذا يجب على المصريين أن يفعلوا ؟ وأية نصيحة يبعث بها الشاعر الى مواطنيه ومصر أحوج ماتكون الى جهود أبنائها ؟ ويعرف عبدالحليم هذا كما يعرف أن مصر باتت مطمع الدول ، لكل فيها مغنم ، وكل يريد أن ينال كسباً ، فيقول :

فراقبوا الله يوماً فى كنانته إن الكنانة أضحت مطمع الدول

* * *

رأيت هنا عبدالحليم شاعراً من شعراء الحرية يبكى لأجلها ، ويتحدث عنها ، ويهيب بالمصريين أن يعرفوا لوطنهم حقه عليهم وأن يعملوا على تقدمه ، ولكن

صاحبنا لم يوقف شعره على مصر بل سلك سبيل البارودى وحافظ فى الحديث عن الشرق وعن «فروق» أقرب العواصم بعد القاهرة الى قلب الشاعر. وفى الاستانة كثرت المظالم وقيد الناس بالاغلال وافتيد الابرياء الى البوسفور يبعثون الى قاعه ، وضاق عبدالحليم بهذا كما ضاق به ولى الدين فحمل على عبدالحميد وعهده فى قصائد طوال نجدها كلها فى الجزء الأول من ديوانه ، وأروع ما تلقاه له عن هذا العصر المظلم فى حياة الشعب العثمانى قصيدته « خلع عبدالحميد » والتى جاء فى مطلعها :

ودّع وسلم فان الدهر حالان والتاجُ من رأسِ سلطانٍ لسلطانِ

وستجد فيها صفحة دامية من حياة الأهلين . واقرأ معى حديثه عن سيدة أحاط بها الجند فى دارها وقد انتصف الليل يسائلونها عن زوجها وكان الرجل قد فرّ من قبضة يدهم قبل أن يداهموه فى داره . وستحسّ معى بليلٍ مظلم وقد عصفت الريح بالاشجار وتساقط البرد يغطى أرض الطريق ونوافذ الدور ، وفى هذا الجو الأغبر وقفت المرأة المسكينة تصطك من البرد بين جند يتدثرون بأردية سميكة ، وكلهم طامع وحاقد ، وقد جاءوا يحملون أمر التعذيب والاعدام للرجل فما وجدوه وهم يظنون أن المرأة قد أخفته فى ناحية من البيت وهى تقسم وهم يصدّون ، وفى هذا يقول الشاعر :

الله فى ربة الخدر التى جلدت والجند ما بين فتّاك وطعان (١)
طاعت لها العين حتى صار مدمعها رياً لكل خميص البطن صديان
كم ساءلوها عن (المختار) فاعتصمت بالله فى القول من إفك وبهتان
وكذبوها فقالت : قطعوا جسدى انى ضحية أقسامى وايمانى
كلاهما صان فى الدنيا لصاحبه عهداً ، فدرّهما لله زوجان

وتسير بك القصيدة حثيثا دون أن تجد العنف الذى تراه واضحاً فى قصيدة ولى الدين عن العصر الحميدى . وستجد شاعرنا أبدا يتحدث الى عبد الحميد عن نعمائه ، ويذكره بأيامه الماضية قبل أن تنزل به النكبة وقبل أن تطوح بعرشه ثورة الشعب الذى ألهبت ظهور أفراده بالسياط وشويت جلودهم بالنيران ، فانقلبت الى شعلة مضيئة تقود الجحافل وراءها ، وقد ضمت قصائده الى

(١) الله مفعول لفعل محذوف تقديره اتقوا الله .

مانظمه الشعراء فى الحديث عن الثورة والدفاع عنها فى كتيب صغير تعلوه صورة مدحت أبى الدستور ، وأسوق لك هنا مثلاً منها فى قوله مخاطباً عبد الحميد :

شاهدت حولك أسواراً تفيض دماً ... كأنما قد بناها بالدم البانى
مدججات إذا قيل القتال سعى ... مقرونة السير بنياناً لبنيان
تظلها ساريات قطرها عجب ... من أنسر وشواهين وعقبان
لم تبسم الناس فى (عموز) من جذل ... الا وقد عبسوا فى شهر نيسان

وختمها أو كاد بقوله :

الملك للواحد القهار لا ملكٌ ... فينا ولا دولة تبغى على شان

وكما دافع عبد الحليم عن الاحرار العثمانيين ودعى الى معاونتهم ، حثّ الشرقيين على معاونة أهل طرابلس فى صراعهم مع الطليان ، وستراه يحادث (رشاداً) صاحب الامر فيقول :

بالسيف بالرمح بالقرطاس بالقلم ... صونوا حمى الملك واحموا حوزة العلم
يا صاحبَ التاج هذى أمة بدأت ... تدنس الأرض فاغسل أرضها بدم
فى الشرق جند ادا ناديت عن كثب ... عدا اليك على جنٍّ بلا لجم

وذكر الشاعر حياته فى الجيش وعاد يحنّ الى حومة الوغى ومزاحمة الفرسان ، وكان الشاعر قد ضاق بالحياة فى مصر كما ضاق بالحياة فى السودان فلم يصل الى بغيته عند ما جاءها يحمل عدده من النظم والقريض ، ولعل الشاعر كان يبغى الرحيل الى طرابلس لأنه يقول من قصيدته :

فيا الاقامة فى مصر وتلك ربى ... يضيق فيهن صدرُ الرحب بالرحم
سيفى جوادى . عجادى . عدتى . زردى ... قلى تيابى . أناتى . سطوتى همى
لا حبذا رقدة بالنيل ناعمة ... وحبذا وقفة بالجيش من أَمم
لا خير فى العيش يطويه الفتى ألماً ... كم فرج الموت عن نفس من الألم
أستودع الله أهلى فى كنانته ... مستقصياً عنهم مستوصياً بهم

ولم تقف جهود الشاعر عند هذا الحد فعاد يثير حمية أهل الشرق ويحرضهم على الجهاد . واقرأ معى قصيدته « تطوّع يا فتى الهيجا تطوّع » والتى جاء فى مطلعها :

سلام الله يا دار السلام ليخمد فيك ملتهب الضرام
فسيف الله فى كفّ الامام وجنـد نبيه مـلء الأكام

وفيها يقول :

تطوّعْ يا فتى الهيجـا تطوّعْ لأنت بمنبر الهيجاء مصقع
فصفها إن سلمت وقلْ وأسمِعْ (فان القول ما قالت حذامِ)
ومهلاً (أمة الطليان) مهلا أزاد بنيك حلمُ الترك جهلا
ستُمسح أرضكم جبـلا وسهلا ويخفق سـعيكم بين الانامِ
سلوا (اليونان) هل بلغت مرادا وهل ردت كتائبها جوادا
وهل لم تغرس الترك الوهادا قنًا لهمو وتظفر بالمرامِ ؟
سلوا (الدبّ) الذى أقعى وكرّا أأنشب فيهم ناباً وظفرا (١)
وإلاّ كانت (الأتراك) جمرا تسيل عليه من مجرى الغمامِ ؟

واصطدم الجيشان ، وانتصر الترك والعرب وحملت الأنباء الى العـالم الاسلامى خبر هذا النصر فنظم عبد الحليم قصيدته الثالثة لذكرى هذا النصر وفيها يقول :

السيفُ يصنع ما لا تصنع الـكتبُ لا الحرب قول ولا صدق الظبى كذبُ
تخرّص القوم فى الهيجاء وارتعدت فرائص هدّ من أركانها اللجبُ
ومنتهى القول إن الحرب قائمة الترك نار لها أعداؤهم حطبُ
يا (أنور) ادع (نيازى) يصطحبك بهـا فالحرّ للحرّ فى الهيجاء يصطحبُ

* * *

والسياسة كما حدثتك هى أكثر ما نجـده فى ديوان شاعرنا النابغة ، واسمعه فى

---

(١) الدب كناية عن الروس .

قصيدته (المساجين) [1] يتوجع لحال اثنين طاح بهما الاحتلال الى السجن فيقول:

قالوا سجنا كما والنار قد خمدت ... تالله قد أوقدوا ما أخمدوا بكما

لو يستطيعون أن يأتوا بمعجزة ... فليجعلوا الأفق تربا والتراب عما

فى كل يوم سجين لو تئن له ... قال (العميد) أثاروا فتنة عمما

هم ينقمون علينا كل آونة ... فهل على الشعب من بأس اذا نقما؟

خذوا هنيئاً بلاد الله آهلة ... الا الكنانة والبيتين والحرما

فيا قطينى ظلام السجن لا جزعاً ... لا يعرف البدر حتى يقطن الظلما

وتابع عبدالحليم شعره السياسى فى حولياته وتجد الكثير منها فى الجزء الأول من ديوانه ، وقد أوقف عبدالحليم هذه الحوليات على الحديث عن مصر والشرق الأدنى ، وتستطيع أن تقول أن كلا منها كانت تاريخ العام وسجل الحوادث التى مرت طوال أيامه ، والغريب أن عبدالحليم لم يجمع هاته الحوليات فى كتاب واحدمع أنه داوم على انشادها فى حفل استقبال السنة الهجرية منذ عودته من السودان. وحوليات عبدالحليم أقدم المذكرات السياسية فى التاريخ المصرى الحديث ، وأسوق لك هنا واحدة منها نظمت فى حوادث عام ١٣٢٧ ، وثق اننى لم أتخيرها لك بل جاءت فى ديوانه بعد قصيدته (المساجين) ، وفى قصيدته هذه يتحدث عبد الحليم عن الدولة العلية : كريت ـ المرحوم أدهم باشا ـ العجم ـ الحالة فى مصر ـ صبح الأمير ـ الهجرة ، والقصيدة طويلة أبياتها سبعة وستون بيتاً ، واسمعه يخاطب شباب مصر فيها فيقول :

يا فتية النيل جدّوا السير تغتنموا ... تلك العلى فهى تدعو كل مغتنم

ولا يمت عزمكم من عثرة عرضت ... فصحة الرأى تمحو عثرة القدم

---

(١) تجد هذه القصيده فى الجزء الأول من الديوان ص ١٠٨ ولكن الشاعر ساقها دون أن يذكر تاريخ قرضها ، ولعلنا لو تابعنا تنسيق ديوانه على حساب الأعوام لكان تاريخ نظمها قبيل عام ١٣٢٨ للهجرة ، ولقد حاولنا أن نلم بطرف من الحادث فلم نستطع وعسى أن نجد من أصدقاء الشاعر من يستطيع أن يوجهنا الى الصواب فى الحديث عن أسباب قرضها .

لأنتم اليوم فى نصف السبيل فلا تردّكم عاديات الحادث العمم
المجد بالباب والمذلاج يمنعه فحطموه اذا استعصى فينحطم
ويدخل المجد خطاراً بموكبه يصافح الناس فى أثواب مبتسم

وأغلب ما حدثتك به من قصيد شاعرنا حتى اللحظة نظمه فى الطور الثانى من أطوار حياته ، ولكن لعلك تتوق الى أن أعود بك القهقرى الى شعر الطور الأول وهو بعد فى فجر أيام الشباب . ستجد عنفاً وقوة فى شعر الفخر ، وستجد طراوة ورقة فى شعر الغزل ، وستقع على كثير من وطنياته المليئة باخلاصه لوطنه وجهاده من أجله ، ولكنك ستجد فى شعر هذا الأمد شيئاً كنت تظن شاعرنا براء منه وسترى أن الشاعر قد أكثر فى هذه الأيام من الشكوى والأنين والحنين الى مصر ، ومصر ليست هذا البساط الاخضر من الأراضى الذى يقف عند حلفا ، بل هى وادى النيل كله من منبعه الى مصبه .

وشاعرنا يعتقد هذا ويؤمن به ولكنه مع هذا ضاق بالسودان والحياة فيه ، ضاق به وهو لم يره بعد ولم يعرفه . وقف يودع اخوانه الطلبة عند ترقيته من المدرسة الحربية وقد شارفت أيامه فى القاهرة نهايتها فقال :

سألتنى متى يكون الرحيلُ إن دمعى على الرحيل دليلُ
ربَّ حالٍ تكون خير جواب وسؤالٍ جوابه التعليلُ
هزّنى البين للوداع فأجريـ ـت دموعاً كأنهن (النيلُ)
لمت دمعى ولامنى فيه غيرى فأنا فيه عاذلٌ معذولُ
أبدلت سعدىَ الليالى بنحس والليالى من طبعها التبديلُ
وهدتنى الى سبيل جديد وجميع الثرى لمثلى سبيلُ

ولم يقف شاعرنا عند هذا الحديث ، إذ كان قد برح به الحزن كما يبدو لى لأنه تابع شكواه وهو يقول :

يا حمام السودان تهتف باسمى أنا مهما هتفت باسمى ملولُ

ولعل الشاعر قد أدرك إسرافه فى الشكوى فأراد أن يجد لنفسه بعض العذر فيها فقال :

رُبَّ صبٍّ يرنو الىّ غراماً وفؤادى بغيره مشغولُ
إنْ صدرى أدرى بسرى فسله كلُّ صدرٍ عن سره مسؤولُ

ولكن عبدالحليم كان يعرف أنه سائر الى السودان رضى أو رفض ، وإذن ماذا تجديه الشكوى وماذا يكسبه الأنين ؟ ولهذا عاد فى ختام قصيدته فتنامى شكواه وبدأ يتساءل عما اذا كان سيعود ثانية الى مصر، مصر بالمعنى الذي يقصده الشاعر: القرية التى ولد فيها والبلد الذى تثقف فيه ، فقال :

أيها الناعمون بالاً بمصر أترى يرتجى اليها قفولُ
فهى أجسادنا وما نحن إلا خلسة من ترابها أو فضولُ

وسار صاحبنا الى السودان وفيه عاود الشكوى والأنين ، وبدأ قصائده فى الحنين والتشوق الى مصر . وقف عند خور الجاش[1] يتحدث الى فتاة ، هى تهديه الطريق ولكنه لا يريد فان ما فى قلبه من شوق الى مصر يكفى ليهديه سواء السبيل ، بل لعل هذا الشوق يدنيه فيقول :

لا ترشدينى وخلى الشوق يهدينى لعلَّ يدنيهمو ما كانَ يقصينى
وسائلى الخيل عنى وهى شاردة فى مهجة النقع أدويها وتظمينى

وترى الشاعر هنا قد خرج من حديث الشوق والحنين الى الحديث عن خيل شاردة وسط غبار متطاير بالرغم من أنها تظميه، ثم يسرف فى ذكر هاته الخيل فيقول:

يصهلن حولى فيسبقن الصهيل ولا يردن بالقوم ماءً غير مضمونِ

ثم يعود ثانية الى فتاته التى تهديه الطريق الى الماء . ولكنه يريد ماء النيل ، النيل الذى يقول عنه عند ما جاء القاهرة :

يا نيل ليت اجاج الملح فيك جرى فحلو مائك جرَّ المر والألما !

ولكنه يقول عنه عند خور الجاش :

لا تسقنى الماء إذ يجرى وبى ظمأ على يديك فليس الماء يروينى
لِى فى رُبى النيل رئم كدت أعبدُه فى شرعة الحبِّ لولا شرعة الدين

(١) خور الجاش مجرى ماء عند كسلا .

ولكن النيل الذى يحن اليه الشاعر لا يحييه ، ويمر به ساكتا لأن النيل فى مصر هو النيل عند منبعه حيث يضيق الشاعر بالحياة ، ويدرك الشاعر هذا الصمت الذى يقابله به النيل فيقول :

أبيت ليلى أحييه ومن عجب أنى أحي حبيباً لا يحيينى

والواقع أنه يحق لك أن تحزن فما كان يجدر بشاعرنا أن يكون ملولاً من العمل فى بقعة من الأرض هى وطنه ولآبائه فى ترتيبها دماء وأجساد ، ولكن خذ هذه الناحية من حياة شاعرنا على أنها فترة النزعات ، وباعتبار خواطره شعراً ، وانقده من ناحية القياس واللغة ، ثم اتركه عند ما يصل بك الحديث الى نقد معانيه وأخيلته .

وشعر الأنين والشكوى كثير جمع بعضه فى الديوان ، ويذكر أصدقاؤه الكثير منه . وستعجب عند ما تعرف أن شاعرنا قد ترك خدمة الجيش عام ١٩٠٨ ليرجع الى مصر وكأنه قد قضى فى السودان عامين اثنين ، نظم خلالهما من شعر الشكوى ما تخاله لكثرته قد قيل فى عشرات الأعوام .

ونخلو ديوان الشاعر من حديث تدرك منه سبب هذا الملل وعلة هذا الضيق الذى غمر حياته عندما حان رحيله الى السودان ، ثم فاض عند ما أدرك أنه لاسبيل الى الفكاك من هذا الرحيل العاجل . ولكن الواقع أن شاعرنا كان يتمنى — وهو بعد فى غمرة الشباب — أن يكون ضابطاً فى الحرس الخديوى ، وكانت عدته لهذا شاعريته الفذة ، وتدرك هذا من كثرة مديحه للخديوى السابق وسترى التفنن فى المديح من النماذج التى سأسوقها لك ، ومما تجده بالاضافة اليها فى ديوانه ، ولكن حال دون هذا قرب شوقى من القصر وصاحب القصر ، وفشل عبد الحليم كما فشل حافظ . من أجل هذا ضاق الرجل بحياته بعد أن فقد أمله وفشل فى أمنيته . وتدرك أيضاً أن هذا هو السبب الأول لألمه وشكواه عند ما تعود الى الديوان فتجد أن الرجل لم ينصرف عن السودان جملة ، ولم ينسه بعد أن تركه بل أكثر من الحديث عنه ، واسمعه يقول فى الاحتفال برأس السنة الهجرية (سنة ١٣٢٧) :

مالى أرى السودان طعمة آكل ؟ هل أطمعتهم مصر فى السودان؟
أنسوا أسود النيل يوم تضرجوا بدم العدى حين التقى الجيشان
متواثبين كأنهم فئة القطا وعداتهم حب امرىء وسنان

متسابقين الى الحصون كأنها أوكارهم شيدت على الأفنانِ
متقاسمين العاديات كأنهم في الحرب مشتركان مختصمانِ[١]

وانتهى عبد الحليم من السودان والحياة فيه . جاء الى مصر التى قضى عامين يتشوق اليها ولكنه لم ينس الشكوى ولم ينس التبرم بالحياة ، ضاق بها فى مصر كما ضاق فى السودان ويحدثنا عن هذا من ألمّ بطرف من حال الشاعر فى حياته فيقول : « وعاد عبد الحليم من السودان فعمل فى الأوقاف ، ولم تستمر حياته فى القاهرة طويلاً ففى عام ١٩١٣ نشرت له الأهرام قصيدته (بالأعين اقتلن لا بالمشرفيات) فحملت عليه المؤيد على زعم أن ما فيها قصد به الشاعر الطعن فى أمير البلاد فحوكم وقضت دائرة مجدى باشا بحبسه شهوراً ثلاثة ، الا أنه برىء فى دائرة المرحوم عزيز باشا كحيل ، وكان يدافع عنه الهلباوى بك ، ولكنه وإن نجا من أغلال القضاء لم ينج من سلطان الادارة فنقل الى قنا[٢] » ولحقه فيها عنت الحكومة . ولعله فى هذه الفترة قال قصيدته فى مديح شفيق باشا والتى جاء فى مطلعها « سمىّ رسول الله منى تحية » ولم يجده هذا نفعاً فاستقال حتى ولى الأمر السلطان حسين كامل فمدحه ، واتصل بعده بجلالة الملك فؤاد الأول .

وكما لم ينس عبدالحليم الشكوى لم ينس سيفه الذى لم يغمده مرغماً بل ابتاعه بيراع ظن أن سينال منه غاية ما يأمل من حياة مكفولة الرزق ، ولكن الحظ الذى لم يواته فى حياة الجندية لم يجئه من يراعه الذى شهره ، وستجد أنه ذكر سيفه عند الحديث عن قلمه وسترى مبلغ ثقته بأدبه فيقول :

أغمدت سيفى لا كرهاً ولا فرقاً وابتعته بيراع غير معمودِ
صلب الشباة على القرطاس ليّنها يدمى على ضعفه صمّ الجلاميدِ
إن شاء هدم أبراج النجوم وإن أراد نظم ما استودعن فى جيدِ
اليك أصرفه والطير تتبعه بالنوح طوراً وطوراً بالأغاريدِ

والشاعر هنا يمدح ولى الأمر فى عيد الفطر عام ١٣٢٧ للهجرة . ولكن لمن

---

(١) العاديات : من صفات الخيل وحلت هنا محل الأسم
(٢) من رسالة للصديق عباس حلمى المصرى شقيق الفقيد

النوح ولمن التغريد ؟ هنا ينصرف الشاعر الى نفسه بالنوح وشتان ما بين النوح والتغريد :

نوحٌ عليَّ وتغريد اليك ويا شتان ما بين بكاءٍ وغرّيد !

ولكن أين يمكن أن يأمن كثير البكاء صروف الدهر ، وأين يمكن أن تواتيه السعادة ؟ أجل فى ظل الملك . وماذا فى الحياة بعد هذا الظل الوارف يستظل به الناس لينعموا برغد العيش ؟ ولكن :

ما أرغد العيش فى ظل الملوك إذا خلت مراعيه من عذل وتفنيد !

والشاعر كما حدثتك كان يتوق الى العيش فى ظل صاحب العرش ، ولذا ما كان يريد أجراً على مديحه غير تلك الأمنية التى ملكت عليه نفسه حتى أمرضه الجهد:

وقفٌ عليك مديحى لا أروم به أجراً ولكن مُنَّى فى نفس معمود

والواقع أن عبدالحليم قضى أغلب أيامه إثر عودته من السودان يمدح ، ولم يذكر شيئاً عن تكسبه بالشعر وإن كان أكثر من مديح الخديوى السابق وتعقبه بالتهنئة لمتباين الحوادث من رحيل أو عودة ، أو عيد أوحفل خيرى . والواقع انه من الصعب أن تتقبل هذا كله على حساب أن شعراء هذا العصر قد انصرفوا الى المديح فسلك عبد الحليم سبيلهم ، على أن فترة المديح تحدد الطور الثانى من أيام حياته ، فقد قضى الطور الأولى فى السودان يشكو ويئن ويحن الى مصر ، ويقرض شعراً فى الحماسة والفخر ، وجاء مصر فبدأ الطور الثانى وانصرف فيه الى المديح ، وجاء الرثاء على هامش شعر الطور الأول كما جاء الوصف على هامش الثانى .

قلت لك إن أغلب ما نظم عبد الحليم إثر عودته الى مصر مدح به عباس ، ولكنى مع هذا أفضل قصيدته التى مدحه بها وهو على أبواب الرحيل الى السودان والتى يقول فيها :

لك اللواءان فوق الانس والجان فاخذل عداتك من قاص ومن دان

رب الاسود التى يوم الكريهة لا يرون اخوانهم فيها باخوان

اذا أطلت سيوف الجيش رابية أذكرتنا مازناً فى يوم سفوان

ملكت جنة مصر وهى مقفرة وكان رضوان فيها غير رضوان

فكنت فيها (أبا بكر) باندلس وكنت فى ملكك الفتح (بن خاقان)
يظلها النصر ما دامت أريكتها يظل أعطافها (عباسها الثانى)
لبثت فى أمة السكسون تقرضها عدلاً بعدلٍ وعدواناً بعدوان
وكنت كالدهر لو أغفت لواحظه له على الناس قلب غير وسنان

ولم يبرأ شعر صاحبنا من الاسراف ، ولكنك لاتضيق به بل سترضاه وستجد أنه غاية المديح فى شعر العصر الأخير . وستجد شاعراً أراد أن يمدح رجلاً فماذا يقول فيه ، وأى حديث يصفه به إن لم يقل إنه لا يختلف فى فضله اثنان ؟

لو كنت فى قوم نوح قبل دعوته لم تغرق الأرض من فيها بطوفانِ
الدين مختلف فيه ومؤتلف وأنت لم يختلف فى فضلك اثنانِ

وبقى يمدح صاحب القصر ولكنه أدرك بسرعة أنه يجب أن يصل الى بغيته عن طريق شاعر القصر ، فهو أقرب رجال القصر صلة بصاحبه ، وشوقى شاعر وبلاغته هى عدته ، ولهذا ستجده يضمه الى من فاخر الشعوب قبله بالبلاغة :

ذلت آبيةَ البلاغة فاغتدت تمشى بطرسك مشية المتذلل
فاذا فخرت بها فان محمداً قدكان يفخر بالكتاب المنزل
قد جاء بالمنثور آخر مرسل وأتيت بالمنظوم أول مرسل

ثم يقارض الشاعر أمير الشعراء الثناء فيقول :

قربتنى حتى اذا استوزرتنى أكبرت منزلتى بصدر المحفل

ولكن ماذا بعد هذا التقريب والاكبار :

ولبثت تجرى فى مسامعى صافياً من ماء شعرك كالرحيق السلسل
فتغض طرفك تارة عن عثرتى وتقيلها طوراً بغير تدلل
فاذا تبنيت امرأً فانا الذى يرعى الأبوة فى الزمان الحوّل

وتسير بك صفحات الديوان حثيثاً حتى تصل الى جزئه الثانى ، ولعلك تفكر فيما فعله شوقى للشاعر ... لا شىء ، إذ يعود شاعرنا فيتحدث الى شوقى إثر عودته من الاستانة عام ١٩١١ فيقول :

لقد أخلصت يا (شوقى) ودادى اليك وأنت توسعنى نفورا
فثق بيدىّ واذكرنى بخير إذا ما جئت مولانا (الأميرا)

واستند شاعرنا الى هذا الضرب من القصيد فى قضاء كل ما يعنّ له من أمر الحياة والعيش ، حتى طوحت به المقادير الى قنا كما قدمت لك وكان وزير الأوقاف أو مديرها أحمد شفيق باشا فقال من قصيدة طويلة :

سمىّ رسول الله منى تحية بأمثالها هذا الجلالُ خليقُ

وختمها أو كاد بقوله :

من الغبن أن تغضى وطرفك مبصر وتقسو على مثلى وأنت شفيقُ

وفى هذا بلا جدل نموذج رائع لمهارته فى التلاعب بالألفاظ .

***

والرثاء أقرب شعر عبدالحليم صلة بالسياسة والسياسيين ، وتحسّ بهذا عند ما يقابلك رثاء الزعيم الشاب فى بداية الجزء الخاص بالرثاء فى ديوانه . ويقصّ عليك شاعرنا حديثاً طويلاً عن هذا الرثاء ، فلقد قضى مصطفى كامل والشاعر مريض لا يقوى بصر البرء على رؤية جسمه فلما مرّ العام وأعاد الشعراء والكتاب رثاءه كان صاحبنا مقتول الخاطر مغلول القلم واليد ، ولم يكد يترك فراشه ورأى أن يقضى واجبه حتى واتاه الخيال بهذا الشطر وهو فى سنة من النوم « أقبرك أم قبر النبى أم البيت » وأغفى دون أن يجيش بخاطره الشطر الثانى ، فرأى فى نومه الفقيد العظيم يسائله « ألم تتذكرنى إلا اليوم » فأيقظته الدهشة وبدأ يكتب رثاءه فقال :

أهلاً بطيفك فى نومى يعاتبنى إن العتاب يقوى حرمة الرحم
تالله ما قصدت كفى ولا قلمى يوم الرثاء ولا أكبرت من شمم
لكن قضيت وشعرى فى طفولته واليوم تبدو عليه مسحة الهرم
فلم تكن ذلة تمحو إصابته إصابة الرأى تمحو زلة القدم

والقصيدة طويلة جاء فى مطلعها :

سمح المحاجر هطالاً عن الديم مهما كرمت فلم تحمد على الكرم

ولكن لماذا لا يحمد الزعيم على هذا الكرم لأنه :

مَن قام بالفرض إن لم يُجزَ صالحةً فحسبُه أنه ينجو من النقم
أقمت صرحاً أطال النشء قمتـه حتى تقاصر عنها أطول القمم
فمن تفيأ فى ظل (اللواء) فلا يخاف صرف الردى أو شـدة الأزم

وخرج عبدالحليم من الحـديث عن الزعيم الشاب إلى الحـديث عن دعوته ، وسترى هنا خروج الشاعر من الرثاء الى المديح فيقول :

وقمت بالأمر فى عهد اذا بعثت فى أهـله الرسل لم يؤمن فتى بهـم
كأنمـا الدعوة الأولى التى اتبعت كانت طعاماً وكان الشعب كالنهـم

وعاد عبدالحليم ثانية الى حديث السياسة ، والسياسةهى أول ما يجب أن يصحب رثاء المجاهد الأول ، ومن الواجب أن يتحدث الشاعر عن دعوته تذكرة للشباب :

كانوا يسومون مَرعى أنت ضيغمه فأبصروا أن مرعى الأسد لم يسم
ظنوك بالنيـل ذا وهن فما انطلقت بك العناية حتى صحت فى الأجم
خرجت ليثاً فلم تترك بها ضبعاً إن الضعاف شداد فى عداتهم
غضوا العيون (بنى التاميز) إن على أرض الكنانة قصراً خافق العلم
وبالكثيب ضريحاً نستمدّ بما يوحى الينا حيال الحادث العمم
لم يدعه زائر إلا ويسمع من صفائح القبر صوتاً رنّ كالنغم

وختمها أو كاد بقوله :

قل للحجيج اذا أموا الحجاز قفوا بمصر إنّ بهـا باباً الى الحرم
لا يكمل الحج إلا أن يطوف به ويقرأ الآىَ فيـه كلُّ مستلم

وهـذا لعمرك غاية المديح وأروع ما قيـل فى رثاء المجاهـد الأول صاحب الصيحة الأولى للاستقلال .

* * *

على أنك فى دراسة شعر عبدالحليم ستبحث لأول وهلة عما يتصل وثيقاً بعمله ، وستجد فى البحث عن نماذج كتلك التى سقتها لك عند الحديث عن البارودى ولكنك لن تجد شيئاً منها ، فلم يصف شاعرنا المعارك ولم يتحدث عن السيف والرمح إلا على هامش الفخر ، ولم يذكر السيف والقلم إلا عند صيحته فى حرب طرابلس والتى سلك فى مطلعها سبيل المتنبى .

وأوقف وصفه على الحديث عن مصر : تحدث عن آثارها القديمة وتغنى بمشاهدها الحديثة . واسمعه يصف قصر أنس الوجود ويتحدث عن مصر يوم أن كان القصر يزدهر بأصحابه فيقول :

الدهر ملّ وآى الدهر كامنة ... فى وجهك الطلق لا يبدو بها ملل
قرأت فيهن سر العالمين فيا ... شتان ما بين من قالوا ومن عملوا
كانوا اذا أبصروا شمس الضحى سجدوا ... لها وإن أبصروا شمس الهدى عدلوا
هنالك التاج كانت كلما سطعت ... بدورة طأطأت هاماتها الدول
وكنت كالشمس برجاً حول قبته ... تسعى الكواكب لاريث ولا مهل
وكانت الغيد فى نعماك رافلة ... على منا كبها من سندس حلل
لمحت (هوريس) تحت السيف فانتثرت ... دراهم الشيب فى عطفيك والعلل
فمن يجاريك فيما شدت يا (أنسٌ) ؟ ... المرء مرتحل والذكر مقتبل

ووصف الشاعر الشام وتحدث عن حفل أقيم لتكريم رجل عامل ووصف رحلة فى سفينة تمخر النيل يوم شم النسيم ، ولكنك لن تجد فى كل هذا روحاً جديدة للشاعر . ستجد الروح القديمة الحزينة التى يشغلها حديث السياسة ، وأسوق لك مثلاً من هذا الضرب من القصيد « شم النسيم على سطح النيل » ، وستجد أنك مرغم على قياسها باعتبار الضرب الذى ساقها فيه صاحب الديوان :

دع ذكرَ زمزم والحطيمْ ... وادع المدامة والنديمْ
فالعمـــر يوم للسرو ... ر وألف يوم للهموم
ولربمـــا جاء الزما ... ن بغير ما يرجو الحكيم
أنا لا أنوح على الديا ... ر ولا على الانس المقيم

وستقف هنا لتسائل نفسك : لماذا لا ينتحب الشاعر لوطن مغلوب على أمره ؟ ولعل الشاعر قد أدرك هذا لأنه يجيبك من توّه :

إن الديار ومَن بها في ذمة الله الكريم
(مصر) لمن يشتدّ سا عده من الزمن القديم

وينصرف الشاعر عن حديث النواح الى الوصف أو على وجه أصح ليبدأه فيقول :

فدع النواح وهاتها صفراء بيضاء الأديم
راح وريحان ورو ض زانه عود وريم
نطق الجماد بكفه والميت أنطقه اليتيم (١)
وجرت على أوتاره أطرافه جرى النسيم

* * *

ونجد في قصيد عبدالحليم نوعاً من الشعر القصصي ، وتلقى هذا في أول الجزء الثاني من ديوانه في قصيدتيه « عبرة المقامر » و « بين القبور ميت يتكلم » كما تلقى خواطره ونزعاته في الصفحات ١٣٤ — ١٤٤ من الجزء الثاني من الديوان وأغلبها مقتطع من رسائله الى أصدقائه ولكنك لن تجد فيها جديداً يباين ما حدثتك عنه من الضروب التي نظم فيها. ولكن ثق أنك ستقف بازاء قصيدته «يا عمر» وستعاود تلاوتها مرة إثر الأخرى ، ستجد روح الشاعر النزاعة الى الخير ، واسمعه يقول :

يا عمرُ أخشى أن تطو ل وأن يكون العيش مرّا
فأتح لعيني أن ترا جع في الشبيبة منك سفرا
حتى أرى ما خط في صفحاته خيراً وشرا
فاذا وجدت الخير أر جع من أخيه بنيت قصرا
واذا وجدت الشر أر جع من أخيه حفرت قبرا
ما أحسن الدنيا اذا صدقت لنا خَبراً وخُبرا

وأسلوب عبد الحليم سهل ، وعباراته سلسة ولا تحس بتكلف في شعره بل ساقه

(١) يقصد باليتيم عيسى عليه السلام .

على طبعه وسليقته . وقد خلا شعره من الغرابة والتعقيد ، ويدل على المكانة التى كان سيصل اليها لولا وفاته المبكرة عام ١٩٢٢ فى الخامسة والثلاثين من سنى حياته . وكان عبدالحليم ينظم القصيد فى غير عناء ، ولكن مع هذا لم يرو على البديهة سوى بيتين اثنين عند ما راح مع جماعة من أصدقائه يزورون الدكتور يوسف طلعت باشا فقيل لهم إنه مريض فأنشد لتوّه :

قد مرضنا ولم نجد من دواء غير انا نزورُ ذاك الحكيما
وشددنا الرحالَ نرجو شفاء فوجدنا ذاك الشفاءَ سقيما

ويحفظ أصدقاؤه كثيراً من شعره الذى لم ينشر ، ويجمع الصديق الفاضل عباس حلمى المصرى الكثير من هذا القصيد لينشر فى جزء رابع يصدره من الديوان ، وأسوق لك منه هنا قصيدته « هارون الرشيد وسحابته » :

الشرقُ كان لنا ملكاً بأجمعه ونحن كنا بروض منه معطارِ
دانت لامرتنا الدنيا وساكنها وهاب سطوتنا ضرغامها الضارى
وطوّح الفتح بالنصر المبين لنا فالشمس محصورة منه بأسوارِ
نمسى ونصبح فيه وهى مشرقة كأنها شعلة فى الشكّ للسارى
وقولة قالها هرون حين رأى سحابة عرضت حبلى بمدرارِ
أطوى السماء وجدّى السيرَ راحلة فانما أنت فى أرضى وأمصارى
أنّى نزلتِ من الغبراء ناحيـة أنى خراجك محمولا الى دارى
فهكذا نحن كنا أهل مملكة ليست تجدّ بأسماع وأبصارِ
إذا تلمستها لم تلق باقية إلا أحاديث فى أفواه سحارِ
فلا تقل نحن كنا أهل مملكة قل تلك مملكتى أو تلك آثارِى
فاليوم صرنا كأن الشرق ليس لنا داراً ولسنا به أصحابَ آثارِ
فما لنا غرباء فى مواطننا ونحن منها بجناتٍ وأنهارِ؟!

وممن حيّوا عبد الحليم تحيةً حارةً عند صدور ديوانه من شعرائنا الأحياء

الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وهذه التحيةُ مثبتة فى ديوان أبى شادى الأول (أنداء الفجر) ، قال :

يا ناشرَ السِّحرِ فى يومٍ بكيتُ به ... عَذَّبْتَ خِلاًّ بحكمِ الحبِّ لم يَنَمِ
ما كان ضَرَّكَ لو أمهلتَنا زمناً ... فرِقَّةُ الشعر تُحيي ميّتَ الألمِ
مِنَ البيانِ شِفاءُ النفس ساليةً ... وما عرفتُ شفاءَ الصبِّ فى القلمِ
يهفو الجمالُ لِشعرٍ قُلتَ أعذبَهُ ... ويَبسِمُ الزَّهرُ فى سُكرٍ وفى حُلُمِ
ورُبَّ قلبٍ — لمعنًى رُوحُهُ فِتنٌ ... يَحْيا الجمالُ به — ناجٍ مِنَ العدمِ
أحنُو عليه وأتلوه كأنَّ به ... وعدَ الحبيبِ ، وأُدنى لفظه لِفمى
فما عبستُ قليلاً فى بدايتهِ ... الاَّ طربتُ وولَّى بَعدَها ندمى
وأقدرُ الناسِ يُبكيهمْ ويُفرحهمْ ... مِنْ رُوحهِ الحىِّ فى شِعرٍ وفى نَغَمِ

وفى هذه الأبيات يشير أبو شادى الى ما انتابه حينئذ من أزمةٍ عاطفية لا تزال آثارها متمشيةً فى شعره الحديث .

وطبع من ديوان الشاعر جزؤه الاول والثانى ونشرا فى عامى ١٩١٠ و١٩١١ وكتب مقدمة الجزء الأول الكاتب الشهير محمد صادق عنبر ثم نُشر الشاعر الجزء الثالث عام ١٩١٨ . وقد تريد أن ترقب هذا الاثر النفيس يوماً ما ، وتجده فى دار الكتب الملكية برقم ٥٩١٣ آداب ولعلك تقضى فى مطالعته ساعة ثق انك لن تأسف عليها ؟

عبد الفتاح ابراهيم

المتنبي وشعره

ما اسم المتنبي بالشيء الهين يذكر دون اكتراث ، ولا صيته بالقصير المدى لا يقام له وزن أو اهتمام ، بل هو عاصفة هوجاء عصفت فى ميدان الآداب العربية ، فأثرت فيها وتغلغلت حتى أدق خلاياها ، وسيطرت على كثير من مبانيها وحواشيها .

تذكره فكأنك تذكر جباراً من جبابرة الوجود ، وتتلفظ باسمه فكأنك تتلفظ بآية من آية الخلود . وهو حقاً كذلك ، فلقد جمع فى نفسه ما لم يجمعه عدة فى أنفسهم جميعاً ، وما كان ابن السقاء - إن صح زعم الزاعمين - إلا فلته فلتت فى غفلة من الطبيعة . فأعوام ألف هجرية مرت واسمه يدوى بين المتأدبين والشعراء كأروع مايكون ، وكأن رمح الاسدى قد غزه وصرعه فى الأمس البارح ، يدوى بأشد ممن سبقه أو تلاه من قرضة الشعر وقوالة القصيد ، وقد شغل من جهد ، واستنزف من قوى ، واستغرق قوله من نقد وتمحيص مايضن بشيء منه على جمع كثير .

تقول المتنبي ، فيداخلك منه رهجة ، لا لما يتصل باسمه من تموجات النبوة ، ولا لما ينبعث من طياته من نفحات ما وراء الطبيعة ، وانما لما يأخذ - ما يتركه شعره من أثر - من مكامن ذاتك ، وما يثيره فيك بطبيعته ، حتى ما كان يكذب حقيقته ، ويداجى أحواله ، ويخفى عجزه . يتباهى بالجود وهو شحيح ، ويدعى المقدرة وهو الطموح حقاً ، لكنه منها على قلة وندرة ، ويشعرك بالقوة فتخاله قائداً هصوراً صؤولا يشد فى ركابه العسكر المجر . فانظر اليه يمدح على بن محمد بن سيار التميمى ، فيصول ويجول فى الاعتداد بقوته ، ويتوعد ويهيمن :

أقل فعالى ، بله أكثره ، مجد ... وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا ، خفاف إذا دعوا ... كثير إذا اشتدوا ، قليل إذا عدوا

وطعن ، كأن الطعن لا طعن عنده ... وضرب ، كأن النار من حره برد !

اذا شئت حفت بى على كل سابح ... رجال (؟) كأن الموت فى فمها شهد

فأنت تراه لا يتجنى إلا على وقائع الكلام ، ومعارك الألفاظ ، وانها لمحمدة فيه على كل حال ففى نفسه الكبيرة هذه المنى ، وقد كان يسعى نحوها ، وكان يتوق اليها

وكان يرجوها بكل ما فى نفسه من قوة، فان لم ينلها واخفق ، فما هو بالملوم . ألم يعبر أبو القاسم الطبسى فى وصفه المتنبي عما كان فيه من طموح :

كان فى نفسه الكبيرة فى جيش ، ومن كبرياه فى سلطان [1]

ولكى نعطيك مثالاً نقول إنه جرت العادة بين الشعراء أن يعدّوا ذواتهم أدنى من ممدوحيهم ، أما هو فكان يرى ذاته وإياهم سواسية إن لم يجدهم أقل منه بكثير كما عبر فى ظروف شتى غير أن الايام لم تواته ، فبسمت لهم وخذلته عن كيد وحقد . لذا كان ينشدهم شعره قاعداً لا قائماً بين أيديهم مؤثماً بعادة الشعراء حتى انه عند ما أنشد سيف الدولة احدى قصائده المشهورة فى مدحه قال أحد الحاضرين ليكيده أمام الأمير: «لو أنشدها قائماً لأسمع ، فان أكثر الناس لا يسمعون» فقال المتنبي : « أما سمعت أولها : لكل امرىء من دهره ما تعوّدا ! » وهى حادثة من حوادث كبريائه العديدة . وقد رُوى عنه أيضاً : انه كان يقف لدى كافور وفى رجليه خفان ، وفى وسطه سيف ومنطقة ، ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق ، وهذا منتهى الطغيان والعجرفة خاصة من شاعر ، لدى سلطان كبير . ولم ينل ما ناله المتنبي أحد من الشعراء حتى الأخطل الذى كان كثير الادلال على عبدالملك ، حتى انه مرة طلب منه خمراً ، فأجابه عبدالملك : « أوعهدتنى أسقى الخمر ؟ لا أمّ لك ! لولا حرمتك بنا لفعلتُ بك وفعلت » رغم حبه الكثير له كما انه لما أنشده قصيدته التى أولها : « خفّ القطين فراحوا منك أو بكروا ... » فكان عبدالملك يتطاول لكل بيت منها ، ثم قال : « ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب الى الآفاق انك أشعر العرب ؟» ثم أمر بمولى يسير بين يديه ينادى : «هذا شاعر أمير المؤمنين ! هذا أشعر العرب ! » . ومع كل هذه الحظوة لم يكن الأخطل قادراً على فعل شىء مما كان يفعله المتنبي مع ملوك طغاة ، وكيف كان يدل بذاته عليهم وشتان بين تسامح بنى أمية وطغيان بنى حمدان والأخشيديين ! وانه لتدهشك فيه هذه القوى الاعتدادية ، وانه لتبهرك منه هذه الصفات المتينة ، ففى شعره ميزة ولكلامه وطأة ، قلما يمتاز بها شاعر ، أو قلما تصدر من سواه عن شعور صادق ، وإن صدرت ففى قصائد ، لا كما هى فى المتنبي فى كافة أقواله : فى الرثاء والمديح

(١) يروي أبو منصور الثعالبي فى (اليتيمة) هذا البيت عن صاحبه هكذا :

كان من نفسه الكبيرة فى جيـ شر ، ومن كبرياء ذى سلطان

(أبولو)

والهجاء والحكم على السواء . ونحن طبعاً لا نعلم ما هية صدقه فى قوله ، وحقيقة مدى صفاته الشامخة فى طلب المعالى وحب السلطان والجاه . ففى زمانه لم يكن هنالك من يلم بعلم النفس كما نفهمه فى هذا العصر حتى يترك لنا درساً وافياً أو نبذة ما ، ونحن فى هذه الأيام نتحدث عن أناس عاشوا منذ مئات أو آلاف من السنين وليس لدينا الأدلة الوافية عن صفاتهم غير أحاديث وأخبار يعلم الله مدى مطابقتها للواقع ، فنحن نتكهن عن أحوال أولئك الناس ونكيّفها بحسب أفكارنا وقد نزيد ، وقد نقلل ، لأننا لا نعلم الظروف . ونحن نعلل أقوالهم ونحللها حسب آرائنا الخاصة دون أن نعلم أحوالها وهذه الأحوال هى نور يفيض علينا ، وينصب كاللهب فوق شخصية المرء الذى نبحث فيه ، فيبرزها لنا واضحة جلية ، ويا لها من أحوال نادرة ! ولست أعلم كيف نحلل لأنفسنا ، حين نقرأ كلمة أو بيتاً ، أو جملة لأحد من الناس وهى مبهمة أو معقدة تحتمل تآويل عدة ، فيتسنى لنا بعد ذلك الجزم بقصد معين لصاحبها فى قولها ، نتوهمه من ذاتنا ، والله يعلم كم نشط عن الحقيقة ، وكم نبتعد عما عناه ! وقد يكون ذلك الشخص قالها عفواً ، ولم يخطر له ببال قط ما خطر لنا من مقاله ، لكننا نريد ذلك ، ونأبى الترجيح ، ونصرّ على التوكيد وأسفاه ! ثم نحن نقول إنه فعل ما فعل ، أو قال ما قال ، لأن صفاته كانت كذا وكذا ؛ ولا برهان لدينا إلا أحاديث قليلة تكاد تكون مبهمة لا تؤدى غاية معلومة ، لكثرة متناقضات أحوالها . فالمؤرخ العربى كان همه الأول أن يجمع أكثر ما يستطيع جمعه من شتات الأخبار ثم يضمها سوياً لا يهمه تنافرها أو تلاؤمها ولو كان معاصرها ، وعلى قارئها أن يستخلص ما يشاء ، فلا يسعنا والحال هذه إلا أن نحكم على الأعمال ذاتها كما نستخلص حقائقها نحن ، لكن دون أن نؤكد حكمنا .

لكن يشفع فى المتنبي لدينا حادثة ، وحادثة واحدة ، ان صدقت دلتنا على ما رأيناه من صفاته فى أعماله الباقية وفى أقواله ، وعلى ما يتحدث به الناس عن طموحه وبسالته ، وتجنبه ركوب مراكب العار والشنار ، ويحقق فيه قول الطبسى . وهذه الحادثة هى تلك التى انتهت بموته : فكلمة العبد له عند ما أراد الفرار : « لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ ! »

وردّه عليه : « قتلتنى قتلك الله » ، فكرّه على الأعداء ، وموته تلك الميتة الفظيعة ، يصدق عليه شجاعته ، وابتعاده عما يحمل عليه تحدّث الناس بالسوء وازدرائهم به وتهكمهم عليه ويجب علينا أن نقرّ أن الرجل كان قد ناهز الخمسين وأربى ، وربما أصيب بالوهن ، وأحسّ ذلك فى نفسه فأراد الفرار ، فلو كان قد أتم نيته لما كان عتب عليه أو ملام ، ولكننا لا نود أن نتلمس له المعاذير ، من باب التكهن والرجم بالغيب ، سيما وان هذه الحادثة لا نعلم الثقة التى رواها ، ومَن سمع كلام العبد وحكاه للناس ما دام الحديث تمّ فى معركة ، وقتل المتنبي وأصحابه كلهم مع العبد ذاته ؟! لكن لدينا رواية هى أكثر ثقة ، وأدعم أساساً ، بل هى الوحيدة التى تجلو الغوامض فى قتله عن ثبت ويقين ، وهى تدلنا كيف أوردته كبرياؤه حتفه ، كأن راوى الحادثة السالفة قد أخذ عنها شيئاً من روحها . فقد روى أبو نصر محمد الجبلى ، كما جاء (فى الصبح المنبي) ، ما عرف عن مقتله ، وكان المتنبي صديقاً له ، ولسنا نريد أن نسرد هنا كلامه كله ، وانما نقنع بهذه السطور نقتطفها من روايته ، وكيف أراد أن يحول المتنبي عن عزمه بالسفر لئلا يقع فريسة لفاتك الأسدى ، فلم يتحول :

قال أبو نصر : فتلقيته وأنزلته فى دارى وسألته عن أخباره وعمن لقى فى تلك السفرة فعرّفنى من ذلك ما سررت به له ، وأقبل يصف ابن العميد وفضله وكرمه وعلمه ، وكرم عضد الدولة ورغبته فى الأدب وميله الى الادباء ، فلما أمسينا قلت : « يا أبا الطيب علام أنت تجمع ؟ » قال : « على أن اتخذ الليل مركباً فان السير فيه أخف علىّ ، قلت : « هذا هو الصواب » رجاء ان يخفيه الليل ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً ، وقلت له : « الرأى أن يكون معك من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك الى بغداد » فقطب وجهه وقال : « فما تريد بذلك ؟ » قلت : « أريد أن تستأنس بهم فى الطريق » قال : « أنا والجزار فى عانقى فما بى حاجة الى مؤنس غيره » قلت : « الامر كما تقول ولكن الرأى الذى أشرت به عليك » فقال : « تلويحك ينبيء عن تعريض ، وتعريضك ينبيء عن تصريح فعرفنى جلية الامر » قلت : « ان هذا الجاهل فاتكاً الاسدى كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو غير راضٍ عنك لانك هجوت ابن اخته ضبة ، وقد تكلم بما يوجب الاحتراز والتيقظ ، ومعه أيضاً جماعة نحو العشرين من بنى عمه ويقولون مثل قوله » فقال غلامه : « الصواب يا مولاى ما أشار به أبو نصر خذ معك عشرين رجلاً يسيرون

بين يديك الى بغداد ، فان ذلك أحوط !» فاغتاظ أبو الطيب من غلامه غيظاً شديداً وشتمه شتماً قبيحاً ، وقال : « والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأني سرت فى خفارة أحد غير سيفى » .

قال أبو نصر : فقلت : « يا هـذا أنا أوجه قوماً من قبَلى فى حاجة لى يسيرون بمسيرك وهم فى خفارتك» فقال : «والله لا فعلت شيئاً من هذا» ثم قال : «يا أبا نصر أبنجو الطير تخوّفنى ومن عبيد العصا تخاف علىّ ؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطىء الفرات ، وبنو أسد معطشون لخمس وقد نظروا الماء كبطون الحيات ، ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده . معاذ الله ان أشغل فكرى بهم لحظة عين !» فقلت له : قل : إن شاء الله » فقال : « هى كلمة مقولة لاتدفع مقضياً ، ولا نستجلب آتياً » ثم ركب فكان آخر العهد به ولما صحّ عندى خبر قتله وجهت مَن دفنه ودفن ابنه وغلمانه ، وذهبت دماؤهم هدراً ! » .

ألست ترى فى هذه الرواية وهى من صديق جليس للمتنبي كيف أن أنفته جنت عليه ، وكبرياءه أزهقت روحه ؟ وألست تلمس فيها لمس اليد ما تجلى فى شعره من ضروب العجب والزهو والخيلاء ؟

إن أكن معجباً فعجبُ عجيبٍ لايرى فوق نفسه من مزيدِ !

لو لم يك متكبراً محباً للعظمة ، مغرماً بالصيت ، وكانت كبرياؤه تأخذ عليه كل فج وصوب ، لما ادعى النبوة ودعى الناس الى الايمان به ، ولما ذهب الى كافور يتمسح به أملاً أن ينال منه ولاية على مقاطعة فى مصر ، ليتسنى له من بعدها ـ (ولنعد الى التخمين والحدس إن لم يكن منهما مفر هنا نظراً للمظاهر) ـ الايقاع بكافور ، فشعر به الاسود فماطله ، ولما تغافل عن نصيحة صاحبه الجبلى ونفر من مصاحبته لاحدٍ فى تلك الفيافى الموحشة . فالتوافق الذى يبدو هنا وفى أكثر الاحيان بين قوله وفعله من حيث الاستماتة فى حب المجد والعظمة والجاه والسلطان ـ لا من حيث الجود وكثرة الجنود والبنود وهو ليس منها على شىء صحيح ـ هو ما حقق لدينا قول الناس فيه ، وانها لمما لا يتناظر فيها أحد .

ونحن نود هنا أن نتحدث عن متناقضاته ثم عن صفاته ، ونتطرق بعد ذلك الى ما يستقر فى شعره من الفوائد الخلقية التى يمتاز بها عن سواه .

لعل أبرز ما فى صفات المتنبي : الادعاء ، والادعاء الكاذب شر مقتنى وأذل مرتشد .

غير اننا ننزه شاعرنا عنه ولا نراه يدعى عن عجز ووهن فى نفسه مثل غيره ، وهذه وقائعه وأفعاله تنبئنا بشهادات كثيرة لا نعرف قرب أغلبها أو بعده عن الحقيقة ، لكن الكثيرين يؤكدون صحتها ، فان كانت كذلك ونزلنا عند رأيهم وجدنا ادعاءه وخوفه من تخرصات الناس الذى حمله على ركوب المركب الخشن وتعرضه للاذى كما قال لغلامه : « والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأنى مرت فى خفارة أحد غيرسيفى » ومهما يكن من تخوفه من حديث الناس فلا ينفى انه كان فى قرارة نفسه شىء كثير من الشجاعة وهو القائل :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى ... أنا الثريا ، وذان الشيبُ والهرم !

أتراك تريد ممن يصف ذاته بالثريا أن ينحط الى الثرى الى دركات السوقة فيقنع بالكفاف من العيش أو يفر من القتال وهو الذى يدعى أنه يأبى أن يعدّ بين من يعيش بينهم من الناس أهل زمانه ولو كانوا سادة وملوكا ، وانه كالتبر لا يضيره أديم الارض الذى يحيط به :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكنْ معدنُ الذهب الرغامُ !
أرانبُ غير انهم ملوكٌ ... مفتحةٌ عيونهم نيامُ !

ولكن الذى يدهشك فيه بعدكل هذا الادعاء ـ وكم له من جولات فيه ! ـ وما كلفه هذا الادعاء فى مواطن عدة من بدء ادعائه النبوة حتى حتفه، كما أسلف القول، أن نشهده يرضى بالتزلف الى كثير من الأمراء ، وينشد مدائحهم ، وأنت تعجب كيف يترفع عن الدنايا ، وكيف يعود فيلحف فى طلب المال من باب مدح الملوك والعظماء ، فتراه يتدنى حتى الى ذل السؤال ، ولو كان السؤال مسبوكاً فى صيغة الفخر، حتى لو راعينا ظروف زمانه ولجوء كافة الشعراء الى المديح واطراء الكبار، لا نقدر أن نغفل قوله لسيف الدولة :

ـ أجزنى اذا أنشدتَ شعراً ، فانما ... بشعرى أتاك المادحون مردّدا !
ودعْ كل صوت غير صوتى ، فانى ... أنا الطائر المحكىُّ ، والآخر الصدى
تركتُ السُّرى خلفى لمن قلّ مالُه ... وأنعلتُ أفراسى بنعماك عسجدا
وقيّدتُ نفسى فى ذراك محبةً ... ومَن وجد الاحسان قيداً تقيّدا
إذا سأل الانسان أيامَه الغنى ... وكنتَ على بعدٍ جعلناك موعدا

ومهما يكن من تغنيه بفضله ، ومضاء شاعريته ، وتهكمه على سائر الشعراء الذين يمدحون سيف الدولة ، أترانا لا ندرك فى أبياته هاته لهجة الالحاف فى الطلب وان المال هو الغاية والمنى والطلب ، وانه لولا المال لما ترك السرى خلفه لمن لا مال له ؟ انه سقوط وانحطاط على كل حال من المرتبة التى لا يود هو الانحدار عنها ، والتى لا يرضاها له أحد من محبيه . ولكنا إن عذرناه مع سيف الدولة لكثرة نعماء هذا عليه ، وعيشة الأعوام الطوال معه ، أفترانا نعذره أيضاً مع كافور الاخشيدى ؟ ان هذا التهالك على استدرار جود كافور ، وتحمّل المشاق فى طلبه من دمشق حتى ديار مصر ، لا إخاله يرفع من قدر أبى الطيب ، ومهما حاول المداهنة فى أبياته التالية ، ان المنّة ليست من خصائص كافور ، فالقصد فيها واضح وضوح النهار وبأسلوب كثير اللجوج ، شديد الضراعة ، بل فيها شىء من الرياء :

اذا الجود ، لم يرزق خلاصاً من الأذى ... فلا الحمد مكسوباً ، ولا المال باقيا

وللنفس أخلاقٌ تَدُلُّ على الفتى ... أكان سخاءً ما أتى أمّ تساخيا

أقل اشتياقاً أيها القلب ! ربما ... رأيتك تصفى الودَّ من ليس صافيا

خُلقتُ ألوفاً لو رجعتُ الى الصبى ... لفارقت شيبى موجعَ القلب باكيا

ولكنَّ بالفسطاط بحراً أزرْتهُ ... حياتى ، ونُصحى ، والهوى ، والقوافيا

وأغرب من هذا كله انه ، وهو الذى مدح سيف الدولة وانقطع اليه دهراً ، ومدحه مدحاً عظيماً ما الى مثله من سبيل ، يعود حيال كافور فيعرّض به خفية ، بينما لا يترك فى مدح مولى بنى عباس الأسود زيادة لمستزيد ، حتى تخال السجود له أضحى واجباً :

قواصد كافور ، توارك غيره ... ومن قصد البحر ، استقلَّ السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زمانه ... وخلَّت بياضاً ، خلفها ، ومآقيا !

ولا يكاد كافور يماطله ، ويسوّف فى وعوده ، حتى نبصر المتنبى ينقلب عليه بأشدّ مما انقلب على سيف الدولة أو سواه ، ويغدو لا يرى كلمات تؤدى حق التأدية جميع مذمات العبد ، ولشدة غيظه وعظم اندفاعه فيه ينكفىء على مصر وأهلها ، كأنهم هم الذين أغضبوه فيصبّ عليهم جامات غضبه أيضاً ، وهذا دليل استرساله فى عواطفه الى أبعد منتهى :

انى نزلتُ بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدودُ
جودُ الرجال من الأيدى، وجودُهُمُ من اللسان ، فلا كانوا ولا الجودُ
ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسهم إلا وفى يده من نَتنها عودُ
أكلما اغتال عبدُ السوء سيدَه أو خانه ، فله فى مصر تمهيدُ ؟
صار الخصىُّ إمام الآبقين بها فالحرُّ مستعبدٌ ، والعبدُ معبودُ !
نامت نواطيرُ مصرٍ عن ثعالبها فقد بَشِمْنَ ، وما تفنى العناقيدُ

الى آخر تلك القصيدة التى هى نسيج وحدها فى القدح والهجاء .

وانه ليدهشك فى هذه القصيدة أنه بدأها بالفخر ، ولست أدرى أين هذا الفخر الذى يجوب له الانسان القفار ، ويتجشم لأجله وحشة الفيافى وجفاوة الصحارى ليرِدَ امرءاً مثل كافور ، يعلم عنه ما يعلم ، ثم ينكفىء عليه اذا لم يجزِه كما يريد ؟!

لولا العُلى ، لم تَجُبْ بى ما أجوب بها وجناءُ حَرفٌ ، ولا جرداءُ قيدودُ

هذا التناقض ، لا بين القول والعمل فقط ، بل بين فعل وفعل آخر ، غريب وغريب للغاية . وانها معضلة مبهمة فى أخلاق المتنبى ، قد تدلنا على غرابة أطواره أو تجعلنا نظن أنه يتأثر ببعض عوامل فيتدبّرها ويتقيها ، لكن مَن منا يعلم اليوم حقيقة ظروفه وملابساتها الاضطرارية ؟ لكنه إن كان يعتقد ما يقوله فى شعره ، وما يؤيده فى أعماله فى ظروف شتى ، فلماذا يكذب ذاته بذاته وبالأعمال الناطقة أيضاً ؟ أكان يعرف مبلغ هاته التناقضات ، وكم هى تجلب عليه من حديث الناس وهو ما كان يتوقاه ؟ أكان يحسّ بها يا ترى ويعلم حقيقتها؟

لا أرانى إلا قائلاً ومتسائلاً ، ما عناه بول بورجيه فى مقدمة روايته (شيطان الظهيرة) عند ما قال : « ان الذى يكذب ، ويدرى كذبه يمكنه أن يمقت علّته ويصلح من شأنه ، ولكن ماذا فيمن يكذب ولا يدرى عيبه ؟ » فهل عُنى المتنبى فى مجازفته الأخيرة فى القتال اصلاحاً لأخطائه السالفة ، واثباتاً لعقيدته السامية وحدّاً لتقولات الناس ؟

أتراه أيضاً كان يجمع فى ذاته صفات الشخصيات المزدوجة ، ولا أعنى أبداً انه كان مرائياً ، بل مسيَّراً بطبيعتين جامحتين متباينتين ، أى : أكان يودّ — لو تمّ له — العيش حياة محترمة نزيهة لا يدرنها اللجوء الى هذا أو ذاك ، كما كان قصده

الأوّلى الذى دفعه لادعاء النبوّة ، فلما أخفق فيها دفعه ذات حب السيادة والعظمة والمال من حيث لا يدرى الى مدح الملوك والأمراء والوزراء والعظماء محاولاً ألا يفقد شممه واباءه ، أو يرضى التظاهر بالضعف أمامهم فى هذا المديح والطلب ولا يقبل منهم أدنى انتقاص لقيمته ؟ أسئلة قد تبقى فى فؤاد القدر الى الأبد !

انه يلوح لنا أيضاً كأن المتنبي من الناس المتناهين فى عواطفهم يندفعون بها حتى النهاية القصوى ، يحبون كل الحب أو يكرهون كل الكره . فعند ما تراه يمدح أحداً يرفعه الى الطباق السبع ، وإذ هجاه خفس به الأرض الى هاوية الجحيم . هكذا كان عند مامدح سيف الدولة (ثلث شعره) وكافوراً وأبا شجاع فاتكاً وأبا العشائر وبدر بن عمار وابن العميد ، لم يترك كلمة فى المديح إلا قالها فيهم . وهاك شيئاً من بعض أمثلة من أشعاره ، تدلك على تناهيه فى عواطفه ، واندفاعه معها فهذا سيف الدولة رجل تفرق لمرآه الملوك ، هو البحر يكنّ فى جوفه الدرر واللآلىء ، وهو عين أعياد العالم !

هو البحر غُصْ فيه ، اذا كان ساكناً ... على الدرّ ، واحذره اذا كان مزبدا !
فانى رأيت البحر يعثر بالفتى ... وهذا الذى يأتى الفتى متعمدا
تظل ملوك الأرض خاشعةً له ... تفارقه هلكى وتلقاه سجّدا !
وتحيى له المالَ الصوارمُ والقنا ... ويقتل ما تحيى التبسُّمُ والجدا
هنيئاً لك العيد الذى أنت عيده ... وعيدٌ لمن سمّى وضحى وعيّدا
ولا زالت الأعياد لبسك بعده ... تسلم مخروقاً وتعطى مجدّدا
فذا اليوم فى الأيام مثلك فى الورى ... كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا

واذا أردت كافوراً رأيته قد جمع فيه كافة المفاخر ، واذا العبد أشرف وأعزّ من قبائل عدنان ويعرب واليه تنتهى المحاسن فى الورى ، واذا من نتن أبطيه يخرج المسك ، واذا الغيث الهطال من بعض فضله ومنه أو أقلّ :

أبا كل طيبٍ لا ابا المسك وحده ... وكل سحابٍ لا أخصّ الغواديا

* * *

قالوا : « هجرت اليه الغيث » قلت لهم : « الى غيوثِ يديهِ والشآبيب »

* * *

ويغنيك عما ينسب الناس أنه اليك تناهى المكرمات وتنسبُ

وأى قبيل يستحقك قدره معدٌّ بن عدنانٍ فداك ويعربُ(١)

أما اذا انقلبت الى بدر بن عمار فاعجب له يؤلهه ويفضل كلامه على الفرقان والتوراة والانجيل :

لو كان علمك بالاله مقسّماً فى الناس ما بعث الاله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما أنزل ال فرقان ، والتوراة ، والانجيلا

هكذا هو مديحه ينطلق من عنانه حتى المنتهى ، حتى المستحيل ، وكذلك هو فى هجائه فاذا هو عندما انقلب على كافور لا يترك له رجاء فى محمدة أو معزة فى مكرمة فقد أودع هجاءه له كلَّ كلمة لاذعة من قدح وذم وجدها فى قاموس فكره ، وقد أوردنا بعضها قبلا . وأعجب له حين مات أبو شجاع كيف رثاه قادحاً فى كافور فاذا « بأبى المسك » ينقلب جيفة نتنة واذا الصادق الجواد الذى لا يعرف غير الجود عن سخاء وكرم يصير أكذب كاذب ، جوده بالقول لا باليد :

قبحاً لوجهك يا زمانُ فانه وجهٌ له من كل قبح برقعُ

أيموت مثل أبى شجاع فاتكٍ ويعيش حاسدُهُ الخصىُّ الاوكعُ

أيدٍ مقطعةٌ حوالى رأسه وقفاً يصيح بها : ألا مَن يصفعُ ؟!

أبقيتَ أكذبَ كاذبٍ أبقيته وأخذت أصدق مَن يقول ويسمعُ

وتركت أنتن ريحة مذمومة وسلبتَ أطيب ريحة تتضوّعُ

واذ انصرف الى هجاء ابن كيغلغ كال له من ذات الكيل ، وهل تراك تريد أقصى من هذا ؟ :

يقلى مفارقة الاكفّ قذالُه حتى يكاد على يدٍ يتعمّمُ

---

(١) ما أغرب المتنبى هنا فقد رفع كافور الاسود فوق العرب بينما لم يمنح هذا الفخر لسيف الدولة وهو من ربيعة حين مدحه بقوله :

تشرف عدنان به ، لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

وجفونه ما تستقرُّ كأنها مطروفةٌ ، أو فتَّ فيها حصرمُ
واذا أشار محدّثاً فكأنه قردٌ يقهقه أو عجوزٌ تلطمُ
وتراه أصغر ما تراه ناطقاً ويكون أكذب ما يكون ويقسمُ

أو أنظر اليه فى هذه الأبيات ، كيف يصف صاحبه :

كذا خلقتَ ومَن ذا الـــذى يخالف ربَّهْ ؟
إنْ أوحشتكَ المعالى فانها دارُ غربهْ
أو آنستك المخازى فانها لك نسبهْ !

فى المدح والقدح على السواء كان سبّاقاً الى التقاط كل كلمة نادرة قصوى تؤدى أشد معنى . فالوسط لا يتطرقه ، بل لا يعرفه ، ولالفاظه قوة ومضاء وعزيمة كأنها أشخاص حيَّة تتحدث وتنطق فهى أناس صُبَّت فى صور ألفاظ ، ورجال كوِّنت فى هيئة كلمات . فالناس من ملوك وكرام وامراء وعظام وعبيد ولئام وجبناء وبهائم تكاد تراهم فى شعره رأى العيان ، والصفات من بسالة وكرم ونبل وشرف ونذالة وانحطاط ودناءة وخبائة تكاد تلمسها فى ألفاظه لمس اليد ، وانه لمصور ماهر فذٌّ ، بل هو عبقريٌّ ليس له ثان ، كما قال عنه الطبسى بحق :

ما رأى الناس ثانىَ المتنبى أى ثانٍ يُرى لبكرِ الزمانِ
هو فى شعره نبيٌّ ، ولكنْ ظهرت معجزاته فى المعانى

كان فيه أيضاً أنانية وجشع وبخل كما يروى عنه الرواة ، مع انك لاتعثر على شىء منها فى شعره إلا قليلا ، وإن علمت أنه يحب المال حبّاً عظيما من لجه فى السؤال لكنك لا ترى فيه ثناء على البخل وهو القائل :

ومَن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقرٍ ، فالذى فعل الفقرُ

وأنت لا تدرى أصادقون هؤلاء الرواة ام كاذبون فى تنادرهم بحوادث بخله ، خاصة ماجاء فى حديث أبى بكر الخوارزمى عن قطعة النقود التى تخللت خلل الحصير من المال الذى صب بين يديه عليها من صلات سيف الدولة ، فأكبَّ عليها بأجمعه يعالجها وينقرها حتى أنقذها وقد أدمى أصبعه ، ولما عوتب فى الأمر قال : « انها تحضّر المائدة » !

أما جشعه فيستدل عليه من لحاقه بكل من بسطت راحته وجادت يده ، ورجاؤه فيهم أن يكون شاعرهم الأوحد ، وهو شيء من حب الذات عظيم . وكم انقطع عن سيف الدولة عند ما كان يراه يمالىء شاعراً آخر عليه مما حمله على القول :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعرٌ ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟

ثم قوله الصريح لسيف الدولة :

أزلْ حسدَ الحسَّاد عنى بكبتهم فأنت الذى صيَّرتهم لى حُسَّدا !

* * *

أدلينا هنا ببعض نوادر من حيث تناقض بعض أقواله مع بعض أعماله ، ثم تناقض بعض أفعاله مع بعض أفعاله الأخرى ، وانها لتمسّ سمعته بعض المسّ ، وتؤثر فى قوة شخصيته وعنفوانها البادى بين سائر الشعراء ، فقيمة الكلام تقاس بصاحبه ، أو بالأحرى أن ملام الشخص يزداد أو ينقص فى أعماله وأقواله ، بحسب قيمة نفسه فى عينه أو فى أعين الناس ، وما يلام لاجله امرؤ لا يؤبه له فى آخر ، وهو ما يجعل وزر المتنبى كبيراً فى تناقضاته . ومع أن أعظم عيب فى المتنبى هو ادعاؤه المفرط ، والذى لا نجد له عذراً فيه ، لكنه فى رأينا لا يضير على الأرجح القارىء المتكسب ولا يؤذيه فى شخصيته ، بل لعله يفيد الضعفاء إن علموا كيف يستغلونه عن فطنة ودراية .

ومع كل ما ارتكبه المتنبى من متناقضات فهو من جهة الاخلاق فى شعره على أعلى ذروة بين شعراء العرب القدماء ، فلم يكن للمجون والهزل اليه من سبيل فشعره شعر الجد ، شعر القوة ، شعر العظمة ، لا شعر الضعف والتخنث . وهذا ما أبعده عن صفاته الخلقية ما يشين المرء من الانغماس فى الملاذ ، بل بالأحرى أن نزاهته وعفته وكبرياءه هى التى طهرت شعره من كل عوامل الفساد ، فليس فيه ما يوحى بالحطة والابتذال ، حتى فى سؤله يحاول الترفّع ، كما أسلفنا القول ، وانه ليؤثر فى صفاته الشخصية من جهة ادعائه وكبريائه لا من جهة مستوى الأخلاق المادية . فاذا جئنا نستوضح المتنبى على وضح نور الآداب — والشاعر بسلامة ايحائه وصحيح نصحه ، لا برنين ألفاظه وانسجام كلامه وجزالة قصائده . فما الانسان إلا بما يوحيه الى الغير من خير أو شر — وبينما يجب أن نراعى ما كان يستلزم عصره ، وما هو مستوى الآداب فى ذلك الحين ، فلكل عصر ذوقه وحضارته ، ولكل زمن آفته .

يجب أيضاً أن نفحصه على نور الاخلاق كما نفهمها بعقل الرزانة والحكمة ، لا كما يريدها الذين يندفعون وراء العصرية الهوجاء

إني شخصياً لا يهمني من المرء إلا ما فى أخلاقه ، ومن النظرة الاولى التى أوقعها عليه أريد استشفاف ماهية آدابه وكنه ثقافته ، ولا أزال به حتى أدرك غايتى فاما صداقة وإما بعاد . كذلك أنا مع الكتبة والشعراء خاصة وعلى مناكبهم يحملون مهمة شاقة خطيرة ، وقد يكون أثرهم على ضعفاء الارادة ليس له رتق . ولعله مما يزيد قيمة شعر المتنبي خلوه على الأغلب من كل عنصر يفسد التربية ، ويؤثر على النشأة لولا تلك الحدة فى هجائه التى تدفعه الى الزلق أحياناً الى مواطن نضنّ به الى أن يصل اليها .

اذا فحصنا قصائد المتنبي فقلما نرى فيها ما يحملنا على الظن بفساد الأديان ، أو الشك بوجود الله (ومخافة الله هى أهم شيء نهتم له ، وقد قيل : « رأس الحكمة مخافة الله » ومن الواجب أن نبحث فى هذا العصر عن كل شيء يسمو بنا عن المادية القبيحة التى تتردى فى أقذر أوحالها وأن نزرع فى النفوس هذا الشيء الروحانى) فاعتقاده فيما وراء الحياة يكاد يكون مجهولاً لدينا ، لكننا لا نظنه كان كافراً لكثرة ما ورد فى شعره من ذكر اسم الله الكريم ، رغم اعتقاد البعض أنه كان من الشاكين بدليل وجود مثل هذه الأبيات التالية :

تحالفَ الناسُ حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجبٍ ، والخلفُ فى الشجبِ

فقيل : تخلص نفس المرء سالمةً ... وقيل : تشرك جسم المرء فى العطبِ

« ٠ »

تسخل أيدينا بأرواحها ... على زمان هنّ من كسبهِ

فهذه الارواح من جوّه ... وهذه الأجسام من تربهِ

ليست هذه الأبيات دليلا حسياً ، أو دليلاً يقيناً ، ونحن لا نودّ أن نبنى حكمنا على الحدس والتخمين من وراء كلمات قد تكون أرسلت على عواهنها فى ساعة تأثر لأننا لا نظن أن المتنبي كان يكتم فى نفسه سراً لا يود اظهاره للناس خوف أذاهم له ، فما كان من هؤلاء الذين يأخذون بالتقية ومداراة الناس ، وهو من كان يستشعر القوه فى أعماله كلها أو أكثرها ، وما كان يأبه أن يعلن آراءه صراحة فيمن يكرههم من الناس . والذى ادعى النبوة ، لا يهاب التصريح باعتقاده فيما وراء الحياة

لو أراد وشاء . ولا نظن أحدا يبحث فى المتنبى وأعماله إلا ويرى فيه هذه الصراحة فلو كان له رأى معلوم لصرح به ، غير أن أكبر الظن أنه ما كان يميل الى مثل هذه المباحثات خوف ما تثيره فى النفوس من أمور قد تؤدى بالقليل المعرفة الى الالحاد ، فضلا على انه يبدو لنا انها لم تكن تهمه بعد التجربة القاسية التى جرّبها وربما هذا ما عناه بقوله :

ومَن تفكّر فى الدنيا ومهجتهِ أقامه الفكرُ بين العجز والتعبِ

وفى أشعاره ما ينبىء عن ايمانه بالله ، وربما كان يعنى قوله حقاً ، فقد أشار فيها بالالتجاء اليه تعالى ، لأن فيه العضد ، وفيه العون ، وأكثر ما يظهر ذلك فى المراثى كما هنا :

أستغفر الله لشخصٍ مضى كان نداه منتهى ذنبهِ

« • »

صلاةُ الله خالقنا حنوطٌ على الوجهِ المكفّنِ بالجمالِ

« • »

جزاك ربُّك بالأحزان مغفرةً ! فحزن كل أخى حزنٍ أخو الغضبِ

لو دانينا بينه وبين المعرى ـ وكان هذا من أشد المعجبين به ـ لوجدنا فرقاً شاسعاً ليس له التئام : فالمعرى يقول بصريح العبارة أن لادين ولا إلَه وما كل معتقد إلا إفكٌ وبهتان ، وحسبنا منه هذه الأبيات :

دينٌ وكفرٌ وأنباء تقصُّ ، وقرآ نٌ ينصّ ، وتوراةٌ وانجيلُ
فى كلِّ جيلٍ أباطيلٌ ملفقةٌ فهل تفرّدَ يوماً بالهدى جيلُ ؟

« • »

أفيقوا ! أفيقوا ! يا غواة فانما دياناتكم مكرٌ من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا وبادوا فماتت سنة اللؤماء !

وكم له غير ذلك من تعريض بالانبياء والرسل وأديانهم ، مما لا نودّ الاسترسال فيه ، ومهما بدا منه فى أبيات من ايمان ، فنحن نعلم انه كان يأخذ بالتقية وينصح بها فربما اضطرته فى بعض الظروف أن يقول ما قال ، فضلا على أنه لم يكن كالمتنبى شاعراً عاطفياً ، بل كان شاعراً مفكراً فيلسوفاً ، وهنا وجه للوم عظيم . أما المتنبى فكان أعف

لفظاً وأكثر تأدباً ، عن أن يحمل ما فى نفسه الى نفوس الغير ، والذى نستخلص منه دون أن نعلق على أقواله فيما وراء الحياة كبير أهمية ـ للظروف والمناسبات الاضطرارية التى يكون قد قالها فيها أو أنها صدرت عفواً كما أوضحنا قبلا ـ أنه أبعد عن أن يؤثر فى عقيدة قارئه ، فربما أيضاً لم يكن مؤمنا فى ذاته،لكن ليس فى أقواله ما يشتم منه رائحة الشك فى ضغط وتأثير ، وربما كان المعرى مؤمناً فى ذاته ، لكن القليل من نبرته يحمل على اليقين ، بينما الكثير ينفث الشك المبين . فأى الشاعرين أفضل ، لامن جهته ، بل من جهة القراء ؟

وما دمنا قد وازنّا بين المعرى والمتنبى فيما وراء الحياة ، فلنرأيضاً بماذا يفضل فيه شاعرنا اليوم شاعر المعرة فى جهات أُخر : فالمعرى شاعر متشائم ، شاعر يائس ملول من الحياة،التى لم تمنحه إلا أتعس ما فى جرابها ، ولم يكن فى نفسه رغم فلسفته ما يحمله على السمو فوقها ، بل كان يرزح تحتها ، فيئن ويتألم ويتبرم ويكشف عن مصائبه وقلما كان ينتصر ويتجالد ، وفى كثير من أبياته تشعر به كأنه يتنفس : أُف ! أُف ! اف ! وهذا يعود الى أصل نشأته ، فقد ولد بائساً،وفوجىء فى صغره بالعمى وكان يستشعر بالمذلة من كل من يحيط به فغرست فى نفسه ، وصارت جزءاً منه . والانسان يسوغ نحو بيئته ، وإن ثار عليها بقى أثرها فيه مهما حاول التنكر لها، والمعرى فى ثورته على التقاليد المحيطة بها انما يثور لأن التقاليد الحديثة التى فيه والقديمة فى العالم هى التى حرضته على تقاليد بيئته التى أخرجته منها ، أو جعلته باعمالها يشعر انه ليس عضواً فيها .

أما صاحبنا المتنبى فلم ينله من الهوان بعض ما ناله ذاك ، وإن يكن قد دخل السجن وأصابه بعض عذابه فانه قد يعدّ هذا استشهاداً فى سبيل عقيدته ، أو على الأقل اضطهاداً له للحيلولة بينه وبين غايته الشامخة مهما كانت دوافعها الحقيقية . وهو لم يشعر أبداً بنفور بيئته منه أو باحتقارها له ، فهو شاعر القوة لا يطأطىء رأسه بل يحارب بكل قواه ويجد لذّة فى الجلاد ، وهو الذى يتمنى « ضرب اعناق الملوك وأن ترى له الهبوات السود » .

فبينما نرى اليأس متجلياً فى أشعار المعرى يتمنى الموت وهو فى ثلاثة سجون كما وصف ذاته :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيثِ
لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى ، وكون النفس فى الجسم الخبيثِ

حتى نراه يقول بيأس وحرقة طالباً الموت لكل مولود :

فليت وليداً مات ساعة وضعهِ ولم يرتضع من أمه النفساء !

بل انه طلب أن يكتب على قبره كلمة كلها قنوط وشكوى من الحياة :

هذا جناهُ أبي عليَّ م وما جنيتُ على أحدْ

أما المتنبي فنراه غير ذلك ، وهاك بعض أبياته :

عرفتُ الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهتني لم تزدني بها علما

« • »

كذا أنا يا دنيا اذا شئتِ فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائها قدما !

« • »

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل

« • »

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود !

فرؤوس الرماح أذهبُ للغيـ ـظ وأشفى لغلِّ صدرِ الحقودِ

فاطلب العز في لظى ، ودع الذل م ولو كان في جنان الخلود ! (١)

ولسنا نريد أن نسترسل في سرد الشواهد من كلا الشاعرين وهي كثر ، ونقنع بالقول أن أعمى المعرة يحمل في يمناه كأس التشاؤم بفلسفته العميقة الغامضة ، وهو قد لا يفيد إلا كل قوى الشكيمة ، متين العقيدة ، صلب الارادة ، لا تخدعه الألفاظ الوهاجة . بينما المتنبي ، وهو شاعر القوة ، خير صديق للضعفاء لأنه يمنحهم القوة على مجالدة الأيام ، ومقارعة الخطوب ، كما أنه لا يتعرض للعقائد . ففي المتنبي إذن تفضيل وسمو على المعرّي .

---

(١) هذا البيت كأنه مأخوذ من قول عنترة :

لا تسقني كأس الحياة بذلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

وكنا كتبنا منذ ست سنوات في مجلة (الكلية) بحثاً عن عنترة وذكرنا أننا قد نقابل بينه وبين المتنبي لما بينهما من تشابه في بعض المواطن ولم نتمكن حتى اليوم ، لكن لعل الفرص تواتينا عن قريب .

من خواص شعر شاعرنا هذا ، صيغة الحزم البادية فى شعره ، فهو لا يتدنى حتى فى غزله — وهو قلّة — إلى ما وصل اليه كافة شعراء الغزل . أما المجون الذى يرفع لواء زعامته أبو نواس وبشار بن برد وأبو دلامة فهذا ما يستنكفه أبو الطيب ويأبى الانحدار اليه . وهو الذى يكره الخمر ، ويسمو بنفسه عن كافة الناس أن يفعل ما تفعله الناس ، وانّ هذا الترفع من متانة خلقه :

فؤادٌ ما تسلّيه المُدامُ وعمرٌ مثل ما تهبُ اللئامُ

* * *

وللسرّ منى موضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يفضى اليه شرابُ
وما العشق إلا غِرّةٌ وطماعةٌ يعرّض قلبٌ نفسه فيصابُ
وغيرُ فؤادى للغوانى رميّةٌ وغيرُ بنانى للزجاج ركابُ

وفى شعره صفات الكرم والجود ، وقد روينا عن نجله شيئاً ، لكننا لا نراه فى قصائده ينصح به ، وهو تناقض آخر بين العمل والقول ، لكنه تناقض ممدوح ، وليس يضيرنا هذا ، فان فائدة قارئه فيما يلمحه بين السطور من الحضّ على المكرمات وان الجود محمدة ، ما دام لا يخرج عن الحدود ، كقول القائل :

ما بين تبذيرٍ وبخلٍ رتبةٌ وكلا هذين إن زاد قتلْ

ولولا شدة قدح أبى الطيب فى الناس ، وتخيّره الكلمات الثقال فى ذمهم ، ولولا الحقد العظيم الذى ينفثه نفثاً هائلا فى هجائه اللاذع لما كان فى شعره نقصٌ يذم عليه من جهة الأخلاق ، فشرٌّ مقتنى أن ينشأ الانسان على الغلّ والحقد ، وقد لا يكون المتنبي ممن يضمرون الشر لأحد ، ويحفظون الضغينة فى قلوبهم ، لكن وحى شعره فى نفس قارئه لا يدل على غير هذا ، فيا حبذا لو كان خلا من هذا الوحى الذميم ، ويا حبذا !

ولسنا نريد أن ننسب الى المتنبي ما ليس فيه بمناسبة هذه الذكرى الالفية لوفاته ونطريه منساقين مع التيار ، بل نود أن نقول ما نعتقد فيه حقاً ، دون أدنى افتئات ودون أدنى تمويه للحقائق ، حين نقول، إننا لا نراه إلا غرّة الغرر فى جبين الشعر العربى القديم ، ليس فقط بجزالة شعره ، ومتانة تعبيره ، وانما أيضاً بما يوحيه — باستثناء لاذع هجائه — من مكارم الاخلاق ومحامد الصفات .

بركات — السودان : ميشيل سليم كبر